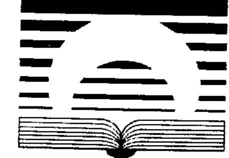
مصطفى لطفي المنفلوطي



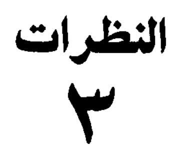
الجزء الثالث

دار ومكتبة الهلال

الطبعة الأولى
2000 م



دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر
بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 601020 / 601002 / 551305 (01) مقسم: 1216 خليوي: 672366 (03)
فاكس: 817745 1 (961) - ص. ب.: 5003 / 15 - بيروت - لبنان
E-mail : hillal@libancom.com.lb


النظرات
٣



البيان

أعرف أديباً من أفضل الأدباء في هذا البلد المضطلعين باللغة وفنونها. الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها، إلا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة، ولا ينشر في الناس كتاباً، إلا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعملاً يأخذ على القارىء عقله وفهمه، فلا يدري أي سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة، فلا سبيل له إلى التخلص منها، والنزوع عنها، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله إليه في بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العامة، فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا إعجاباً كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته، قادر على الإبانة عن أغراضه ومراميه، كأفضل ما يتقدر متقدر على ذلك، إلا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفاً، ويأخذ نفسه أخذاً، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شأناً، وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والأدب، ولكن هكذا قدر له أن يقضي بنفسه على نفسه.

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها، وما أحسبها أفلتت من يده، ولا جاءت في هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها، والتدقيق في وضعها فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يسأل عن الإجادة في الشعر، لا عن البراعة في النثر، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب، أمام قوة الشاعر غير عالم أنه كاتب من أفصح الكتاب وأبينهم، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم، وأنه ما أحسن إلا حيث ظن الإساءة، ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان.

ووالله لا أدري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أَساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الأغراب والتعقيد فيها، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لا لأَنفسهم؛ وأَن الناس، خصوصاً في هذا العصر عصر المدنية والعمل، والحركة والنشاط أضن بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه، ولم لا يؤثر أحدهم أن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله، أو للشهرة والذكر أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها، وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتاب الناس ليفضوا إليهم بخواطر أفكارهم، وسوانح آرائهم، وخلجات نفوسهم، وهل يعني المتحدّث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما يقول، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغياً، ومقبلاً محتفلاً، وأي فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص، أو يفضي إليهم ببعض الآراء فيتلطف في تفهيمهم، وإيصال معانيه إلى نفوسهم. ويفتن في اجتذاب ميولهم وعواطفهم. وبين أن يجلس إلى مكتبه ليبعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم؛ ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى؟

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة في اللغة وأوسع اطلاعاً على مفرداتها، وتراكيبها، وأقدر على استظهار نوادرها وشواذها ومترادفها ومتواردها، ولا متحفاً لصور الأساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزناً لأَحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال؛ فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يعني بها المؤلفون والمدونون وأَصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً، فإن عجز الشاعر أو الكاتب ـ مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه ـ عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء الفضلاء، أو أذكى الأذكياء؛ ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر.

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون، ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبئاً ثقيلاً على كواهل الناس وعواتقهم فمله الكثير منهم وبرموا به، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقة، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم، والأخذ بأسباب دينياهم.

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة العربية والمعنى المبتكر، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب، وكل خيال لم يمر بأذهانهم، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلائقهم فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها، لولا أن تداركها الله برحمته، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابة أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت، أو غلبت عليها العامية فاستحالت.



قال لي أحد الأدباء المتكلفين في معرض اعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي ينهجه في أسلوبه: أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد ألفوا من طريق خطى الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقد غامض، وأن تفهت معانيه وهانت أغراضه، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة وإن اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعاني، أي أنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والسفاهة، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو

المعاني وشرفها، وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرية أن تزدري المبذول لها، وتستثني قيمة الممنوع عنها، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر فحسب، بل مع أدباء كل عصر وجيل، فهم يسمون البحتري وأبا نواس والشريف الرضي وأمثالهم: شعراء الألفاظ، ويسمون المتنبي والمعري وابن الرومي وأشباههم: شعراء المعاني، ليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعاني وشرفها إلا أن الأولين أمطروها على الناس وبعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم، وضن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم، وحلت في صدورهم. قال: ولقد عرضت السلعتين في سوق الأدب فكتبت أتفه المعاني وأدونها في أخشن الأساليب وأوعرها فنفقت في تلك السوق نفاقاً عظيماً، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها، وكتبت أشرف المعاني وأبرعها في ألطف الأساليب وأعذبها فما أبه لها إلا القليل من الناس، وربما لم يأبه لها أحد؛ فلم أر بداً من أن أنتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي أعلم أنها أجدر بي وأجدى علي.

فعجبت لرأيه عجباً شديداً وقلت له: أما هذا الذي تذكره فإني لا أعرفه إلا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابىء، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين، بل ولا رأى العامة من أبناء هذه اللغة، وهب أن الأمر كما تقول، فالأدب ليس سلعة من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها في سوقها، إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون ـ بأداء حقه والقيام على خدمته ـ إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم، والأدباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالتهم وفساد تصوراتهم، ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له، فحمدت الله على ذلك.



ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل ـ في هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلاً ـ باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والخطفى ورؤبة والعجاج، ويكتب بها الحجاج وزياد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربية الأولى، فليس عصرنا كعصرهم، ولا جمهورنا كجمهورهم وأحسب لو أنهم نشروا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بد

من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا.

ليست الأساليب اللغوية ديناً يجب أن تتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً.

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها، ثم نكون أحراراً بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذي نريد.

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرآة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل.

ويجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ، حتى إذا حسن الأول أفاض على الثاني جماله ورونقه؛ فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل.

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها، ومقياس تقاس عليه؛ لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها، واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم.

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة، ولا يقضي حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية إليه، فالأمة قد ارتقت واستنارت، وأصبحت طماحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها، ولا من قلم الكاتب أن يسود بياض الصحف دون أن ينير لها أذهانها، ويغذي عقولها ومداركها؛ فإن كان لا بد باكياً فليبك على نفسه ولينع عجزه وقصوره وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول.

إنني لا أَلوم على الركاكة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت أقلامهم، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل؛ ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا

قوانين اللغة، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها؛ وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك فهؤلاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك؛ إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة، واطلعوا على أدبها، وفهموا سر فصاحتها، وأنقم منهم عدولهم عن المحجة في البيان إلى الجمجمة والغمغمة فيه؛ وأنعي عليهم نقص القادرين على التمام.

الناشىء الصغير[1]

لي ولد وحيد في السابعة من عمره، لا أستطيع على حبي إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنياً لأني فقير، وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس لأني أرجو بفضل الله وعونه، ورحمته وإحسانه، أن أترك له ثروة من العقل والأدب، هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب.

أحب أن ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته، لا على أي شيء آخر، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه. ومن نشأ هذا المنشأ وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيده، نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يتطلع إلى ما في يد غيره، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان.

أحب أن ينشأ رجلاً، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل، وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة، ودافع من الحاجة، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرها وفضولاً، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته، وتقويم أود حياته.

أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة، يصارع العيش ويغالبه، ويزاحم العاملين بمنكبيه، ويفكر ويتروى، ويجرب ويختبر، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ويستنتج نتائج الأشياء من مقدمتها، ويعثر مرة وينهض أخرى، ويخطىء حيناً ويصيب أحياناً؛ فمن لا يخطىء لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض، حتى تستقيم له شؤون حياته.

ذلك خير له من أن يجلس في شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين، والمجاهدين، يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل.

---

(١) كتبت هذه الرسالة جواباً عن سؤال هذا نصه «أيهما أصلح للإنسان: أن يولد فقيراً أو غنياً»؟

أحب أن يمر بجميع الطبقات، ويخالط جميع الناس، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء وشقاء الأشقياء، ويسمع بأذنيه أنات المتأملين، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم، لتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم.

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم؛ فإن حاول يوماً أن يمدّ يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب، فعل ذلك متفضلاً ممتناً لا راحماً ولا متألماً.

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه، بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها، فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس، وكل مكرمة من مكرماتها، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالإنسان الناطق.

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع، ويظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب ليشعر ببرد الراحة، ويسهر لينام ملء جفونه، أي أنني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها.

وما السعادة في الدنيا إلا لمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها؛ وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون ينعمون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها؛ فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر، فيتألمون من الراحة أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان؛ وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها. تفريجاً بكربتهم وتنفيساً عن أنفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب الثمار، ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل. يعالجون الداء بالداء، ويفرون من الموت إلى الموت.

أحب أين يكون غنياً بالمعنى الحقيقي، لا بالمعنى الاصطلاحي، أي أن

يكون مستغنياً بنفسه عن غيره. لا كثير المال والثراء، وما سمي المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب، فإن أكثر الناس فقراً إلى المال وأشدهم ولعاً بإحرازه، وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء، أصحاب المال والثراء، وإن كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين، أكثر منه في جانب الأغنياء الكثيرين، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فإذا هو في نظره الحياة نفسها، يجمعه ولا يدري ما يريد منه، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه، ولا يخشى عقابه، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله، فضلاً عن كثيره، وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون، وتغيير نواميسه، فيرى الرؤوس أذناباً، والأذناب رؤوساً، والوسائل غايات، والغايات وسائل، فقل على عقله السلام.

لا أكره أن ينشأ ولدي غنياً، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته، ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر.

أخاف عليه أن يعتدّ بالمال اعتداداً كثيراً، ويقدره فوق قدره، ويعتبره الكمال الإنساني كله. فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه؛ وألا يجد من حوله من عشرائه وخلطائه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه لأن عشراء الأغنياء متملقون، مداهنون، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم.

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة، ولا تعني بشيء سواها، فيصبح رجلاً قاسياً صلباً، ميت النفس والعواطف، لا يرحم بائساً، ولا يعطف على منكوب، ولا يرثي لأمة، ولا يبكي على وطن، ولا يشترك في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها، ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً بحظه؛ أسقطت السماء على الأرض، أم بقيت في مكانها.

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب، ويزدري المواهب والعقول، والفضائل والمزايا؛ فيصبح عار أمته وشنارها، ووصمتها الخالدة التي لا تزول، ومن أشرب قلبه حب المال، ونزل من نفسه إلى قرارتها، لا يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزناً، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة، بل لا حق لهم في الوجود.

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيء سواه، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه.

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم، وكبيراً في أيدي عشراء السوء، فيصبح نكبته الكبرى في حياته، وعاره الدائم بعد مماته.

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه مروعاً مذعوراً خافق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر، ويصعقه فوت الربح إن فاته، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الأسعار، ونزول الأسهم، وتقلبات الأسواق، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم، والآفات السماوية والجوائح الأرضية.

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقاً إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه، أو الذي كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يتح له.

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً، ولا يجد ما يسدَّ به رمقهم، بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت، أو أن سهماً من أسهمه قد نزل.

وحدّثني من رأى بعينه من جن وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى.

أخاف عليه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم، وهدم ما ترك لهم آبائهم وأجدادهم من مال وجاه، فأندب حظي في قبري، وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد.

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً بإحدى الحانات يمرح في نعمائه، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على

مقربة منه يضطرب في بأسائه، أما الأول فقد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار، تسلب الأولى عقله والأخرى ماله، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها، يضحكون لنكاته، ويؤمنون على أقواله ويصدقون أكاذيبه، ويتحركون بحركته، ويسكنون بسكونه، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين، ويصيح صياح الثعالب، وأما الثاني فقد كان عارياً إلا قليلاً، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه، وقد يبسط كفه أحياناً وهو مغتمض ان خيل إليه أن يداً تمتد إليه بالإحسان، ولا يد هناك ولا إحسان.

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتناقضين، فثارت في نفسي تلك الساعة عاطفتان مختلفتان، عاطفة البغض والاحتقار للأول وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني، وقلت في نفسي: لو كان لي ولد وكان لا بد له أن يكون أحد هذين الغلامين، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين، على أن أراه بين فئة الوارثين، لأني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحماً يحسن إليه، ويستنقذه من شقائه، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فإني لا أرجو له شيئاً.

إن للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة، وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائباً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعلميهم ضناً بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها فإذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الأثقال التي يحملونها من مكان إلى آخر، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد؛ فإذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين، صفر الأكف، فارغي الجيوب، مطرقي الرؤوس، لا حول لهم ولا حيلة، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم وعدموا في عام واحد أو عامين قرناً كاملاً مجيداً من أعلاه إلى أسفله ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك.

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقاً صحيحاً

لرحمهم من هذا المصير المحزن. وضن بهم على هذا التراث المشؤوم.

يقولون إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول: إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء، بل أشد منها خطراً وأعظم هولاً، فإن كان بين الفقراء، اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق؛ فبين الأغنياء: المحتالون والمزورون، والمغتصبون والخائنون، والمداهنون والممالئون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في شهر كامل، والقوام والأوصياء الذين يورثون التركات من دون وارثيها، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها والسياسيون الذين يسرقون الممالیك بحذافيرها.

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق. ولا يسرق السارق، ولا يسلب السالب، ولا يلص اللص إلا جزءاً من حقه الذي كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة، وللرحمة سبيل إلى الأفئدة والقلوب.

ليفتح الأغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء، ولينشؤوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه.

لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق، وإن الفقر علة صلاحها ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء: إني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين، ولم أر قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين.

إن العلوم والمعارف، والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر؛ وثمرة من ثمراته، وما المداد الذي كتبت به المصنفات، ودونت به الآثار، إلا دموع البؤس والفاقة، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة

التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم، والأحزان وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة؛ والأفئدة الحزينة، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة؛ والزوايا المهجورة، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء، وحكماء وإدباء، إلا في مهود الفقر، وجحور الإملاق، ولولا الفقر ما كان الغنى؛ ولولا الشقاء ما وجدت السعادة.

إن المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحد أحداً، ولا يلوي مقبل على مدبر، يعدون ويسرعون ويتصادمون، ويتخبطون، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة، أو مفلتون من مارستان، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو.

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية، ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في خاصتهم وعامتهم، علمائهم وجهلائهم؟ ولم هذه الحروب القائمة، والثورات الدائمة والقتال المستعر بين البشر جماعات وأفراداً وقبائل وشعوباً وممالك ودولاً؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد: هو أن الناس يعتقدون اعتقاداً خطأً أن المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به، فهم يسعون إليه لا من أجل الجمع والادخار، كما يجب أن يكون، بل ومن أجل القوت وكفاف العيش، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة، أو تنازع البقاء. وما هو بالتنازع ولا التناظر، إنما هو التفاني والتناحر، والدم السائل، والعدوان الدائم، والشقاء الخالد.

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة؛ وإن الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه، وإن سعادة العيش وهناءة وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد وهو الاعتدال.



الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا عتباً أن أقضي للناشىء الفقير على الناشىء الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم! وأن أقول للناشىء الفقير: صبراً يا بني وعزاء، فإنك لم تخلق إلا للعمل، فاعمل واجتهد؛ ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك، ولا تحصد غير الذي زرعته يدك، فإن لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك، والزمن خير مؤدب ومهذب، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها؛ وإن كنت ممن لا يعدّون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون؛ فها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور التي ليس لها مثل عقلك وقوتك، فإن الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً أو تهلك ظمأ، ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشىء الغني أسعد منك حالاً، وأوفر حظاً، وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره، فلكل نفس همومها وآلامها، وهموم الفقر على شدّتها أقل هموم الحياة وأهونها.

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ونفس هادئة وقلب شريف، وأن تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده، وتعهدها بنفسه، وسقاها من عرق جبينه.

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً.

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد.

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة أو بيداء مجهولة؛ فنفزع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم، وفي ملتقى غاديهم برائحهم، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسدّ بها جوعتها، فما أقسى قلب الإنسان، وما أبعد الرحمة من فؤاده، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء.

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت إليه تبثه شكواها، أو أن الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضله طعامه، وأحسب لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها[1] ولو أن الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها، لأني لا أعرف مخلوقاً على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان.

ألم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها.

---

(١) شكا إليه فأشكاه أي أرضاه وقبل شكواه.

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل، ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير، والخبز أكثر منه، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها السامعون، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة والمكاثرة، والتي لا تفهم من معنى الإحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً.

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشرة مليوناً من النفوس، فأما اليوم وقد أصبح كل امرىء موكولاً إلى نفسه، ومسؤولاً أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدّها، فها هم الفقراء يموتون جوعاً بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين.

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفاً تنبلغ به أو درهماً تبتاع به رغيفاً فلم تفعل، وكان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن فلم تفعل، لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها، على أن تعيش بعارها، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وأعفائها.

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر، أو يحدث نفسه به، أو يكون عوناً لفاعليه. فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس. أو نزوة من نزوات العقل، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه، ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم، وحركات وسكنات، وإشارات والتفاتات، لا دخل لها في جوهر النفس، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً، وأشرفهم مذهباً، من يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يقترف ما شاء من الجرائم والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها، وأفضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن «الآداب العالية» أي فن الرياء والنفاق، وتفوقوا في استظهار تلك الصورة الجامدة التي تواضع عليها «جماعة الظرفاء» في التحية والسلام. واللقاء والفراق؛ والزيارة والاستزارة والمجالسة والمنادمة؛ وأَمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها، أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها؛ فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها؛ فإذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها؛ ولا يعجبهم من الحسنة إلا صورتها؛ فإذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وترقهم عافوها وزهدوا فيها، أي أنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجراً، على اليد الخشنة التي تحمل بدرة، ويؤثرون كأس البللور المملوءة سماً على كأس الخزف المملوءة ماء زلالاً، ولقد سمعت بأذني من أخذ يعدّ لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث صحائفهم ثم ختم كلامه بقوله: وإني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل «ظريف»! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأن جميع هذه الأشياء فضائل لا شك

فيها، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها، وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ أيام على احتقاره وازدرائه لا لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في أحد أندية القمار، وسموه لصاً دنيئاً، والقمار لصوصية من أساسه إلى ذروته.

❀ ❀ ❀

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد، ومركز واحد: أحدهما خير الناس، والآخر شر الناس، وإن كان الناس لا يرون رأيي فيهما.

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق، والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة، والزهد والسماحة والنجدة، والمروءة والكرم، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف! وفهموا من معناه مثل ما فهم، وأخذوا منه بمثل الذي أخذ، فغضب في وجه الأشرار، وابتسم في وجهه الأخيار، والأولون أكثر عدداً وأعظم سلطة وجاهاً، فسمي عند الفريقين شرساً متوحشاً؛ وامتدح إحسان المحسن، وذم إساءة المسيء، والمحسنون في الدنيا قليلون، فسمي وقحاً بذيئاً حتى بين المحسنين، وبذل معروفه للعاجز الخامل، ومنعه القادر النابه؛ فلم يشعر بمعروفه أحد فسمي بخيلاً؛ واعتبر الناس بقيمهم الأدبية؛ لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقي الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقى به العامة والدهماء؛ فسمي متكبراً؛ وقال لمن جاءه يساومه في ذمته: إني أحبك ولكن أحب الحق أكثر منك؛ فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه.

أما الثاني فأقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده؛ ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلافاً؛ وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفاً على بائس أو منكوب؛ ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين، ويستبكي لهم فعدّ من الأجواد السمحاء؛ وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم؛ ولكنه لا يزال يمسح رؤوسهم؛ ويحتضنهم إلى صدره في المجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين؛ فسمي الوصي الرحيم؛ ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم، إلا أنه يخلط جده بالهزل، ومرارته

بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف.

ذلك هو الأَدب الذي أصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم؛ ويعلمه الوالد ولده والأستاذ تلميذه؛ ويقتتلون اقتتالاً شديداً على انتحاله والتجمل به؛ كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها حتى تبدّلت الصور، وانعكست الحقائق، وأصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإِخلاصه صدراً، وأضلهم بهما سبيلاً، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضي فيها بقية أيام حياته غريباً شريداً؟ أم يبرز للعيون فيموت هماً وكمداً؟



يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح، وأن يكون أدب الجوارح تابعاً له واثراً من آثاره فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس صلاتهم وعلائقهم، وميزان قيمهم وأقدارهم، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلي، وإنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين.



ايفون الصغيرة[1]
«مترجمة»

ماتت وكأنها لم تمت، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها، يحسبها الرائي نائمة نوماً هادئاً لذيذاً، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة؛ ويرى هبوط صدرها وارتفاعه.

أين صفرة الموت ونحوله، أين آلام النزع وشدائده، أين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها؛ والدوائر الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها؟

لقد مات كل ذلك بموتها فعاد لها رونقها وبهاؤها؛ وأصبحت كأنما قد خلقت الساعة ولما تنبعث الروح في جسدها.

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفأة باسمة مطمئنة تلاعب هرتها، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة، وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت.

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها «سأموت الساعة، فائتوني بعصفوري أودعه» فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر إليه باسمة منطلقة. وظل العصفور يلعب ويغرد تغريداً شجياً، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت.

---

(١) هي فتاة صغيرة عثر بها في طفولتها على باب إحدى الكنائس في فرنسا ناظر مدرسة قروية وكان شيخاً كبيراً مات جميع أولاده وأحفاده وبقي هو من بعدهم وحيداً مستوحشاً فأنس بها حين وجدها أنساً شديداً وسماها «إيفون الصغيرة» لأنه لم يكن يعلم من أمر نسبها شيئاً. فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها فأصابها مرض لم يمهلها إلا بضع ليال حتى ذهب بها إلى ربها فرثاها أحد الشعراء بهذه القصة.

وهنا وقف الشيخ الذي تبناها بجانب فراشها واجماً حزيناً، مشرّد اللب؛ ذاهل العقل؛ ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته، فأخذها ووضعها على صدره، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية في قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه، وظل على حاله تلك هنيهة، ثم التفت فجأة إلى أصدقائه، وقال لهم ها هي ذي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئاً فشيئاً فنظروا إليه آسفين محزونين، ثم نكسوا أبصارهم، وأسبلوا مدامعهم فظل يدير بينهم عيوناً حائرة؛ ويتنقل بنظراته ههنا وههنا، كأنما يسألهم المعونة على أمره، ومن ذا يعين على القدر؛ أو يعترض سهم المنية القاتل.

وما هي إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسها.

إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت ايفون الصغيرة، ماتت الطفلة الوديعة الجميلة. ماتت الفتاة الرزينة الصابرة؛ في سبيل الله نجم تلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى وغصن أزهر في روض المنى ساعة ثم ذوى، وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر.

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتسامتها حتى في الساعة تختفي فيها جميع الابتسامات، والحديقة التي كانت تقضي فيها كل يوم بضع ساعات من ليلها أو نهارها تلاعب أطيارها، وتقطف أزهارها، وتتعهد أشجارها والمماشي التي كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتاً ومرجاناً، وقد خلت جميعها منها، وهيهات أن يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم.

كانت إيفون جميلة الخلق، طيبة النفس، نقية الضمير، تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيوخ العجوز، ولا تتودد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وسجرائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى في حياته وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من تلاميذ مدرستها، لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها والخبيث بعفوها وصفحها. وهي وإن لم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولمعانهما الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها؛ وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت أبيها بوصاية جدها كما كانوا يقولون لها، بل في بيت

محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أَمر ميلادها شيئاً، وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بها أقفال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف.

لذلك عجل الموت إليها لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا طويلاً على ظهر الأرض.

دقت أجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها، ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها شوقاً ولهفة كما كان شأنها في حياتها، ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها، والنساء اللواتي كن يحببنها من أجل حبها أَبناءهن، وبكاها أكثر من هؤلاء جميعاً ذلك الشيخ المسكين، لأنها كانت كل دنياه فخسرها في ساعة واحدة.

وظل كثير من الوقوف يردد ذكراها، فيقول أحدهم: طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسة وحدها وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياته. ويقول الآخر: لقد دخلت الكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية فعجبت لصلاحها وتقواها؛ وتقول امرأة: لقد عثرت ابنتي يوماً من الأيام في منصرفها من مدرستها ببعض الأحجار عثرة برحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل، وتقول أخرى: لقد كنت أَراها تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها.

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ثم غيبوها في قبرها وحثوا عليها التراب، وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون:

«وارحمتاه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت إليها».



الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أَعلنت هذه الحرب؛ قبحها الله؛ وقبح كل ما تأتي به ألا أكتب كلمة في صحيفة سيارة في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي أجلها وأن أَترك هذا القلم هادئاً مطمئناً في مرقده مدرجاً في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يراد منه، ولكن نازلاً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام أو عامين لم أَحفل به في مبدئه؛ ولم أَلق له بالاً؛ وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنقشع ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باق في مكانه؛ لا يتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً وأحسبه سيبقى في مستقبل أيامه أضعاف ما بقي في ماضيها إن لم نثر عليه معشر الكتاب حرباً شعواء، تهز جدرانه هزاً، وتدكه دكاً، وتلحق أَعاليه بأسافله لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الألية التي كنت آليتها، فلعل أصدقائي من أفاضل الكتاب يساعدونني في هذا الشأن الذي إن عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً.

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية وما هي في شيء من الهزل ولا الجد؛ ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا بأي فن من الفنون الأَدبية، فأقبل عليها الناس إقبالاً عظيماً، وأغرموا بها غراماً شديداً، فليقبلوا عليها ما شاؤوا، وليفتتنوا بها ما أرادوا، ولكن فريقاً واحداً من الأمة هو الذي نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه أو تظلل سماؤها رأسه لأنا نضن به على كل منقصة في العالم تزري به، أو تنال من كرامته.

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا

وأبناءنا، وعنوان مجدنا وشرفنا، وصورة وجودنا وحياتنا، ومناط أمانينا وآمالنا فائذنوا لكاتب من كتابكم، وصديق من أصدقائكم، أن يحادثكم قليلاً في هذا الشأن كما يحادث الأب ولده، أو الأخ أخاه لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتياً متلطفاً، وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يجب لكم، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم.

الحق أقول، إن الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم، فلا أدري كيف أحدثكم، ولا ماذا أقول لكم؟

أأعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم أو أدعوكم إلى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضيه! أو أقول لكم إن هذه الأماكن التي تطؤها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والأخلاق، ومصارع الأعراض والحرمات! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما أقول، ولكنه الشباب يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة، فيمضي إليها قدماً، لا يجهل مكان الخطر منها، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم.

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة، أو جمالاً يفي بقبح، أو خيراً يعزى عن شر. فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر إليه وملحها ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترقرقة في شفاهم ما يذيبه حياء وخجلاً، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها إلا أصحاب الأذواق العامة الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك؟

بقي فيها الهزء والخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا والمحامين والأطباء والمعلمين

أفاضل الأمة وعيونها، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وأمثالهم.

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخي على مثلها الستور، وتقام من حولها الدعائم والجدران.

فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئاً فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضي عليها للنظرة الأولى بأنها أحط الأمم وأدناها.

ذلك إلى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهجو التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته أو مشهد من مشاهدها، إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يوماً من الأيام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان» فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين.

ولقد قال لي أحد الأصدقاء الظرفاء مرة أن شتائم «أم شولح» قد انتقلت إلى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت إليه، فإني أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد في أفواه الأطفال هازلين، وفي أفواه الخدم جادين.

أتدرون أيها الأصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ممثلين، ويسمون ما يهذون به في مسارحهم روايات، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون؟

لو أن جماعة من الزامرين وآخرين من الطالبين وآخرين من القرادين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقي لهم بالاً ولا نعيرهم أذناً اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة يداً واحدة في مكان واحدة لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربري وشر فنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة، ويجتزئون بالشربة، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم ونتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الأتاوة المغروبة عليها.

وألطف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين «كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد».

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة، وعقولها المفكرة، أن تنخدعوا بألاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها، ولا يمتون إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق، وها هم أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم، أو يعينهم على ما هو بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه.

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح أبيض ورشدي وعكاشة وأمثالهم إن كنتم أنتم لا تذهبون إليها! ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها!؟

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين، فإذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وأمثالها راضين عن مقامكم، فيها، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها؟!

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان ـ مشهدكم في الأجواق الهزلية الساقطة، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة ـ إن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم، ويصلحها الجهل، أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيهم فيقول: ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء، موفوراً لها حظها من الأخلاق والآداب. فذلك خير لها من علم يهوى بها في مهواة الشقاء والعار.

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيداً ولا أسمج وجهاً من هؤلاء القوم.

إنهم يحاولون دائماً أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد، وهو إن كان ثوباً شفافاً ينم عمّا وراءه، ألا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك المخدرات المتحجبات.

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الزذائل إلا ويلصقونها به وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية بشكله. والهزء بصفاته وأعماله، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد (ما دامت بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتم تحبوا وطنكم).

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصري تبديد أمواله في سبيل شهواته، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقي هذه الأقوال!

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها في كل مكان، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحماتها، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (ما لها لغتنا العربية، آل همجية، يا دي المصيبة يا دي العار، فشر... دي لغة المدنية أتمسكوا بها صغار وكبار).

ولا يستحيون أن يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم «أبيع هدومي عشان بوسة، من خدك القشطة يا ملبن، يا حلوة زي البسبوسة يا مهلبية تمام وأحسن» وبين قولهم «مصر يحميك ربك، ما تشوفي إلا أيام سعدك» أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» «وحب وطنك» و «مت في سبيل الأوطان» وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في أفواههم إلا أنهم يعتقدون أن المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات.

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين أمام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا لا أن ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعاً أن الدخول إلى تلك الأماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه.

نحن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة

أخلاق وآداب، وإن في نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيء غير ذلك، فإن فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون في الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم بل يذهب إليها معكم إخوانكم وأخواتكم، وبقية أفراد أسركم، لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم، وترون لهم ما سمعتم فكأن سكان البلد جميعاً رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة، فهل يستطيع متصور أن يتصور خطراً على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر؟

إنني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم اليوم، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غداً، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها الذي أعتقد أنه أمانة في أيديكم، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم، وشرف ضمائركم.

اهدموا هذه الأماكن هدماً بالإعراض عنها واحتقارها، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين: ها قد نجت الأمة من خطر عظيم، وها نحن قد قمنا جميعاً بالواجب علينا لوطننا.

الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة، وهكذا ينفخ في الصور، وهكذا تطوي السماء طي السجل للكتاب.

أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الأفئدة والصدور، وملء الأسماع والأبصار، وملء الأرجاء والأجواء، جثة ضاوية نحيلة مدرجة في كفن، ملحدة في مهوى من باطن الأرض سحيق؟

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة، وتعري الأشجار عن أوراقها، ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة، حينما تهب عليها نسمات الربيع، وينام الأحياء في مضاجعهم، حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري، وعبثت أشعته بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم، وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته آمل، فكأن ما صار إليه: العدم الذي لم يسبقه وجود.

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حي، وأن مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليس سهاماً طائشة، ولا نياقاً عشواء، وأن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبتت فيها أشواك الموت، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع، إذا فارقنا عزيز علينا، لأن ساحة الصبر التي منحتنا، أضيق من أن تسع نازلة البلاء التي ابتليتنا، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين.

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لا نجد فيها ظلاً نستظل به، ولا أكمة نأوى إليها، وإن الصديق الذي نعثر به في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى في ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين، فإذا هبت ريح

عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فإنا لا نجد بداً من البكاء والجزع، لأن من الشقاء ما لا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كأسه.

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب، والنجم المتلألىء الذي كنا نتنوره من حين إلى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها فنحن إن بكيناه فإنما نبكي الأمل الذاهب، والسعادة الراحلة، والحياة الطيبة، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا!

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين، ميت الأمس الشيخ محمد عبده، وميت اليوم الشيخ علي يوسف، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها، يمسكها الأول إن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحداً، فويل للأمة في دينها وويل لها في جامعتها.

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الأمة كثير، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه: الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها، فيقوم لها بكل ما تريد، ويسعى لها سعي الكادح المجد، ويرحم صغيرها، ويحنو على كبيرها، ويحتمل مغارمها، ويغتفر عبث أطفالها، وجهل شيوخها، ويرى لها في كل شأن من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها، أرضاها ذلك أم أغضبها، من حيث لا يمن عليها بذلك. ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً، بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه آلام الحياة وما يعالج من شدائدها في سبيلها.

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال.

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه، لأن الذين ينظرون بأبصارهم، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً، وأدق مسلكاً، من أن تتناولها النظرة الطائرة، ولأنه كان مخلصاً متحنثاً يعمل في سره أكثر مما يعمل في علانيته. ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه.

رأيته في حادثة الأزهر ـ في تلك الأيام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الأزهر والإخريين ـ يقضي كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالأمر ضارعاً إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم قائلاً عنهم ما يقوله النبيﷺ عن فئة حنين «اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبداً» فلا يقف في سبيله إلا حماقة أولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم.

ورأيته يضم إلى كنفه كثيراً من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة «عبد الحميد» وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين ما لا يستطاع احتماله فلم يبال بشيء من ذلك.

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون إلى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء كأنما كانوا معه على ميعاد.

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقداً ولا واجداً ولا منتقماً ولا طالباً بثأر ولا ذائداً عن نفسه إلا في الساعة التي يعلم فيها أن قد جد الجد وأن قد أصبح عرضه وشرفه على خطر، ولم أر سائلاً دخل إليه يشكو حاجة من الحاجات صادقاً كان فيها أم كاذباً ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه إلا أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، رحمة وإشفاقاً، لا رياء ونفاقاً، وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فإذا هو مصيب والناس جميعاً مخطئون.

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سراً كامناً بين أحشاء ضلوعك لا يكتنهها ولا يستشف باطنها إلا قليل من الناس، فما رآها الناس جميعاً رأى العين إلا وهي طائرة في جو السماء إلى ربها، وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم، لا وهم ذاهبون إلى قبورهم حين تنقطع الصلة بينها وبينهم، فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل إن في أرضها كنزاً مخبوءاً حتى إذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون.

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها، بل كنت أفضل من الحقيقة، لأن الحقيقة يخدمهاأعداؤها وأصدقاؤها، أما أنت فكنت تخدم أصدقاءك وأعداءك، أما الأولون فلأنك كنت تحسن إليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك وشرفك، فويل للفريقين معاً من بعدك، وكنت القطب الذي تدور حوله رحى الأقلام في هذا البلد، فقد كانت وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك أو يكتنهوا مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفونك أو يمدحوك أو يذموك، فإن كتبوا في شأن من الشؤون غير هذا فتروا واستبردوا، فواضيعة الأقلام وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك، وكنت العصمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف بؤسها وشقائها، ومواطن خطوبها وكروبها، وما أحسب إلا أن الدهر مُدَّخِر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها في ماضيها، فما أكثر شفاءها وبلاءها بعد اليوم.

أيها الراحل الكريم: لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبي بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعدني عن موطنك في آخر أيام حياتك فحرمني جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك، وأرى آخر نظرة من نظراتك، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات؛ ووقفة أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على ترتبك أول دمعة يذرفها الباكون عليها، فلئن بكيت موتك يوماً فسأبكي حرماني وداعك أياماً طوالاً حتى يجمع الله بيني وبينك.

العظمة

إن رأيت شاعراً من الشعراء، أو عالماً من العلماء، أو نبيلاً في قومه، أو داعياً في أمته قد انقسم الناس في النظر إليه وفي تقدير منزلته انقساماً عظيماً وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم.

العظمة أمر وراء العلم والشعر، والإمارة والوزراء والثروة والجاه، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون، والعظماء منهم قليلون، وإنما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مقالهم، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة، فإذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شيء من الأشياء بعين غير عينه، ولا يسمع بإذن غير إذنه، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطاناً عليه في رأي أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبة لطريقة، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم إن حقاً على الناس جميعاً أن يستقيدوا له، وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم تبهر العيون وتدهش الأنظار، وتملأ القلوب هيبة وروعة، فإن كان شاعراً كان مبتكراً في معانيه أو طريقته، أو كاتباً أخذ على النفوس مشاعرها وأهوائها، أو فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً، أو ملكاً شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه، أو وزيراً ساس أمته بسياسة جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل، أو قائداً ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء.

تلك هي العظمة، وهذا هو الرجل، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم، ومعترك أنظارهم وأفهامهم، ومثال الخلف والشقاق بينهم في استكناء أمره، وتقدير منزلته فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد، حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، والإغراق في حبه، والمشايعة له، والسير بعجائبه وغرائبه في كل صقع وناد فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحادسيه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضه، على قاعدة المشادة والمعاندة. وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها في يده، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئاً مغتبطاً، لا يحزن ولا يبتئس، لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أَبواق شهرته وعظمته.

لا أريد أن أقول إن الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط، فربما كان من هو أضعف منه قوة، وأخمل ذكراً، أسدّ منه رأياً، وأصدق نظراً، وإنما أريد أن أقول أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب، وعقول المفكرين وألسنة الناطقين، وقلوب المحبين والمبغضين، إلا الرجل العظيم.

أحب علياً قوم حتى كفروا بحبه؛ وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه. وسمي بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين، وأنكر بعضهم صحبتهما، وإخلاصهما. وعاش محيي الدين بن العربي بين فئة تراه قطب الأولياء، وأخرى تراه شيخ الملحدين. واغتبط فريق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الإسلام، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً في المسجد الجامع. وسمي قوم صاحب كتاب الإحياء حجة الإسلام. ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح، وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه يلثم الأولون مواطىء نعاله. ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة. وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمة شماتة به، وعيون دامعة حزناً عليه. وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارة فإذا هو سيد الشعراء، وبذمه أخرى فإذا هو أكبر المتكلفين، ورفع قوم شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنساني فقالوا نابغة الدهر، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب. وافتتن المفتتنون بنابليون

الأول فعلوا به إلى رتبة الأنبياء، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك الحمقى والممرورين، وذاق كل من لوثر وكالفين وغاليلو وفولتير ونيتشه وتولستري كأسي الحب والبغض في حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما، وما انقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلي يوسف وقاسم أمين.

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه إليها المغرقون في حبه، أو ينزل به إليها المغالون في بغضه، ولكنهم كانوا قوماً عظماء فانقسم الناس في شأنهم، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم، إلا في شأن الرجل العظيم.

ليس معنى الوجود في الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخرهم بباب لحده ثم ينزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الأرض، وإنما الوجود قرع الأسماع، واجتذاب الأنظار، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة، وتحريك الأقلام الراقدة، وتأريث نار الحب في نفوس الأخيار، وجمرة البغض في قلوب الأشرار، فعظماء الرجال أطول الناس أعماراً وإن قصرت حياتهم، وأعظمهم حظاً في الوجود وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم.

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجار هيكلها على رؤوسهم هادموها وبناتها، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً.

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتاً في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانهما، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما.

لا يعجبنك أن يتفق الناس جميعاً على حبك لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعى

على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل، يضربونه فيصطبر لهم، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلباً لرضاهم، ويهتفون به فيقترب، ويزجرونه فيزدجر.

ولا يعجبك أن يتفقوا على بغضك، لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد.

وليعجبك أن يختلفوا في شأنك، وينقسموا في أمرك، ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم...

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعاد عليه، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم.

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها، ولا يعرفون لها يدها.

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الأرض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التي تطؤها الأقدام وتدوسها الحوافر والأخفاف.

كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء، والتلصق بهم، أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء والأعزاء.

الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده؛ وآدابه وواجباته؛ ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود؛ ولا آداب ولا واجبات، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام، مصيباً كان أم مخطئاً محقاً أَم مبطلاً، صادقاً أم كاذباً، مخلصاً أم غير مخلص؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان. وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع، إلى أنة النزع، وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه؛ ويرشده إلى مكان الصواب منه، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ، حتى يستقيم له الصواب كله.

فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفؤاً في علمه ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس، فد أبينا عليه أن يخط سطراً واحداً في الانتقاد؛ وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله، فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أن المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيباً في بعض ما يقول لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يختلق جميع المآخذ التي يأخذها؛ وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عياب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلقة.

ولقد كتب أول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحقد؛ فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد، ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الأسواق والمجتمعات، وبين أيدي الأمراء

والعظماء، فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيماً، ويجزلون لهم العطايا والهبات، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم، ولا يحظون عند الملوك العظماء حظوتهم، فأخذوا يعيبونهم؛ ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم وأصواتهم، ومعاني أشعارهم، وأساليبهم، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد، والفضل في ذلك للضغينة والحقد، فلرذيلة الحقد الفضل الأول في وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة.

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في استحسان الكلام واستهجانه رأياً صائباً. لا، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه ـ متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم ـ أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملاً، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامي عفواً أنفع للأديب حين يراهما، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه؛ من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره.

وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها، أو خاصتها أو عامتها، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلاً، أن يدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه، واستهجان من يستهجن منه.

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها؟

وبعد، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبي الأبله الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الانزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها، أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم، ويفرق من رؤية الأشباح، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم، يأمرونهم بالباطل فيذعنون، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون، ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً في كل شأن من الشؤون فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه، ولو أن الأصمعي وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ

والقالي وقدامة وابن قتيبة والآمدي وأبا هلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مرادهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلاً لما كرهوها، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحبوها، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها، فهي تختفي حيناً، أو تتنكر، أو تتراءى في ثوب غير ثوبها، ولكنها لا تنمحي ولا تزول.

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت فلقد حرمنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير.



يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان أن امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد، كما وعدته، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغالاة شديدة حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لا تستطيع العودة بدونه، فساقتها الضرورة التي لا يقدرها إلا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها، إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها، ولا يشعر بمكانها، ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها.

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها ففاجأوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخة عظمى، لا على التمثال الذي انتزع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل: رحماك بأمي يا مولاي، وظل يبكي بكاء شديداً.

جمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر، وأطرق إطراقاً طويلاً، وإنه لكذلك إذ دقت أَجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة، وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما: أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة، فإني لا أبيع هذا النوع من التماثيل، فانصرفا لشأنهما. والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته، فشكرت له فضله ومروءته، وجبينها يرفض عرقاً حياء من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان.

❀ ❀ ❀

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان، نجم سعود ونجم نحوس أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم أَلوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء، وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون في فراشهم أنيناً يتصدع له القلب، ويذوب له الصخر، حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم: ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها.

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأَنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل.

إن رجلاً لا يؤمن بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء، ولا قلبه من الخفقان عندما يرى في العيد، في طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زياراته، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها، ورثاثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلىء به أَيديهن، فلا يجد بدّاً من أن يدفع عن نفسه ذلك

الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة وألوانها التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها.

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أَنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة أو مرتين.



من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الأبناء أن شبابكم أعظم قوة ونشاطاً، وأبعد، همة، وأقوى عزيمة، من شيخوختنا، وأن أيدينا الشاحبة المعروقة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة وحرارة، وأبعد غوراً وعمقاً، من آرائنا وتصوراتنا، ولكن الذي ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا، واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرة، والخرف أخرى، كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون، كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيل إليكم معه أن هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم، ووقف عليكم، لم تمر بعصر غير عصركم، ولم يزه بها شباب غير شبابكم، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول في ابتكارها وافتراع عذرتها، ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية والأناة، وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضي ـ وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه ـ لعلمتم أن هذا العهد الذي يمر بكم اليوم، والذي تفاخروننا به وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه؛ وتصوراته وخيالاته مر بنا مثله في زماننا، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون، وتردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والأفكار التي ترددونها اليوم، حتى انطوى ذلك العهد، وزالت معالمه، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتأمل، والخبرة والتجربة فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا، ونثوب إلى رشدنا، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والأفكار، والأحلام والآمال، بإمعان وتدقيق، فاستطعنا أن نميز صالحها من

فاسدها، وصادقها من كاذبها ومعقولها من موهومها، وأن نقلب الأشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح، ونوازن بين هذه وتلك، فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته، واطرحنا ما زادت سيئاته على حسناته فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً، وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة، وأخص صفاته قصر النظر، وسرعة الحكم، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضي أَساس الحاضر ومنبع وجوده، لا يشرق إلا من مطلعه، ولا ينبت إلا في تربته، وإن المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة، وليس أقرب إليه من أن يتصور أن في استطاعته أن يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسمائه، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدها ويتصورها، وإن في إمكانه أن يحيل الترب أمواها، والأَمواه ترباً، وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته، وأن يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته، وتفتر حدته، ثم لا يلبث أن يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً: إن للكون إلهاً لا أستطيع محادته، وللطبيعة سنة لا أَستطيع تبديلها.

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم، ولا نجد حديثاً ألذ ولا أطرب من الحديث عنها، وكنا لشدة إعجابنا بها، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها، والوقوع من نفسها موقعاً جميلاً ندافع عنها ضد أنفسنا، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها، ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها، فتتبرج كما تشاء وتسفر كما تريد وتجلس إلى الرجل جنباً لجنب في المجتمعات العامة والخاصة، دون أن يعارضها معارض، أو يكدر عليها صفوها مكدر، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها إلى أكثر من ذلك فكنا نغتفر لها سيئاتها الأَدبية، ونسميها سقطات، أي هفوات فردية لا أهمية لها، ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانته لها ومقابلة فعلاته بمثلها

لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه، ونقول لها: ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا، صادرة من أعماق قلوبنا، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصوراته، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة، وذلك الجدار القائم بينها وبينه.

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون، وننفر من كل قديم كما تنفرون ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره، لا لأننا وازنا بينهما، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمن الطفولة، والطفل سريع الملل كثير السآمة، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم ثم يملها فيكسرها ويستبدل منها.

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا في الحياة، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفلم» صوره، كأن فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها.

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في أحاديثه واستشهاداته، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم، بل لأنه كان بسيطاً غريراً يحتقر كل ما في يده، ويستعظم كل ما في يد غيره.

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار، وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل أشباحاً وصوراً تتراءى في حياتنا، فنعجب بها، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها وبهجة ألوانها فأصبحنا معتدلين في آرائنا متئدين في أحكامنا، نحب حرية المرأة ولكنا نكره فسقها وفجورها، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة ولكنا لا نقلدها، ونحن نحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم، ولكننا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا.

نحن لا نطلب منكم معشر الأبناء وأنتم في ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا

معتدلين متئدين في أحكامكم وتصوراتكم، أو هادئين في مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأي أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عن أنفسنا؛ ولكن أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص هو الذي إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضنوا به ضنناً.

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا، وأوسع منهم علماً وأقوى إدراكاً، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون، أو متأخرون أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التي تلقبوننا بها؛ ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم، وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق إذ كان مسيحياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يبني له بيعة في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم يمنع عليه شأناً من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه.

ذلك ما نضرع إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبنائكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم - وأساتذتكم آباؤكم - أن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود، وما هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون.

الموتى
«مترجمة»

دقت أَجراس المساء تنعي اليوم الراحل وتندب جماله الزائل وأَخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها؛ ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بِعصيِّهم، لا يريدون بها شراً ولا أذى لأنهم يحبونها ويرحمونها، بل يخافون عليها الضلال، فهم يهدونها الطريق؛ ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أَنها تنام كما ينام البشر، فهو يقيها برد الليل وغائلته، وساد سكون رهيب في تلك الأنحاء، فلا يسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متلألئة؛ ونعيب البوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى في سمائه، وما شكاته إلا أن بني آدم يطأون أرضه، وينتهكون حرمة خرباته المقدسة، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأَرض رقدة طويلة بل أكثر من طويلة، لأنها لا نهاية لها فلا نسمات الصباح الباردة، ولا تغريد الطيور الصادحة ولا صياح الديكة، ولا رنين الأَجراس ولا هتاف الرعاة، يوقظهم من رقدتهم هذه.

أسفي عليهم لقد أمسوا ولا نيران توقد في أكواخهم، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم، ولا صبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم. أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأَمس أشداء أقوياء تمد السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم. ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم وترعد جذوع الأشجار الضخمة فرقاً من ضربات فؤوسهم.

أولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأَمس فرحين مستبشرين يرقصون ويغنون ويجدون السعادة والبهجة في كل ما يحيط بهم فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء، كأنما يسمعون قيثارة مطربة، ويجدون في ضجعتهم فوق الأعشاب

اليابسة الراحة التي يجدها أصحاب الأسرة فوق مهادهم الوثير، ويشعرون في تناولهم ألوان الطعام الشهي على موائدهم، ويغترفون بأكفهم المياه من الأنهر والخلجان فيلتذون بارتشافه كأنما يتناولون صافية الصهباء في كؤوس البلور والذهب.

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصب لهم التماثيل، ولم ترفع فوق قبورهم القباب. كانوا في حياتهم شرفاء عظماء، لأنهم كانوا متحابين متآخين، لا يحسد فقيرهم غنيهم، ولا يبغي قويهم على ضعيفهم ولا يحقدون ولا يغدرون ولا يخافون شيئاً حتى الموت ولا يعبدون إلهاً إلا الله.

كذلك كانوا بالأمس، واليوم طواهم الرمس، فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض، وبعدما أصبحوا في بطنها.

فليجث فوق رمال هذه القبور المبعثرة، وبين أحجارها المتهدمة المتساقطة، أرباب المطامع في الحياة وطلاب المجد والعظمة خاشعين مستكينين، خافضي رؤوسهم إجلالاً وإعظاماً، وليمسكوا قليلاً الإدلال بعزهم وجاههم، والمكاثرة بفضتهم وذهبهم وليخفوا في أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة عن شفاههم، وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التي يسيرون فيها، وإن كانت مخضرة جميلة، مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار، فإنها تؤدي في نهايتها إلى هذا المصير الذي صار إليه هؤلاء المقبورون.

أيها الناعمون في عيشهم، المدلون بعزهم وجاههم، المفتخرون بقوتهم وجمالهم لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعثة بالية، وقبابهم متهدمة خاوية ولم تروا أسمائهم منقوشة بأجمل الألوان وأزهاها على صفائح قبورهم، واصغوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران، والحقول والمروج، والطيور المغردة فوق أعالي الأشجار والسوائم الحائمة على ضفاف الأنهار، فهم أصحاب اليد التي رصعت التاج للملك وصنعت السيف للقائد ونسجت المسوح للراهب، وبنت القصور للأمراء، وصاغت الحلى للأميرات، وغرست العشب للسائمة، ووضعت الحب للطائر، وهيأت للأحياء جميعهم ـ ناطقهم وصامتهم ـ طعامهم وشرابهم، ودثارهم ومهادهم.

أيها العظماء: لا تخلد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحتيها، ولا تطمس

السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي يخطها التاريخ في صفحاته، ولا تسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة في أناشيد الرثاء.

رب يد تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ في حياتها لكانت يد العازف الذي يشنف الأذان، أو يد البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان أو يد الشاعر الذي يثير الأشجان ويبعث إلى القلوب السرور أو الأحزان، ورب قلب في هذه الحفائر المظلمة لو عاش في جو غير هذا الجو، وعالم غير هذا العالم، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال العظام، والأماني الجسام أو قلب زعيم جريء يحاسب الظالمين على ظلمهم، ويدود النوم عن أجفانهم، أو قلب نائب كبير يستهوي ببلاغته القلوب، ويسترعي الاستماع فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب.

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين صدفتيها! وكم من زهرة أريجة لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فأذبلتها! وكم من ماسة وضاءة عجز المعدنون عن استخراجها من معدنها فانطفأ نورها في منجم الفحم المظلم! وكم من قريحة وقادة لم تصقلها العلوم والتجاريب فعاشت مغلفة مهملة حتى انطفأت شعلتها ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون، وبدلت الأرض غير الأرض! نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن) إلا أن التاريخ لا يعرفه، ومن كان له لسان كلسان (ملتن) إلا أنه لم ينصب له تمثال، ومن كانت له همة كهمة (كرومويل) إلا أنه لم يقد الجيوش، ولكنهم عاشوا في هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم فمروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحدهم.

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم، فلو أنهم كانوا عظماء لقضوا أيام حياتهم يسفكون الدماء، ويمزقون الأشلاء، ويغتالون حقوق الضعفاء سعياً وراء أغراضهم ومطامعهم، لا بل إنهم كانوا عظماء ولكنهم بريئون من آثار العظمة وجرائمها.

رحمة الله عليهم، لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى في طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر:

«أيها المار في هذا المكان احترم تربته، ولا تطأ بقدميك رفات الموتى».

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد موتهم. لم يطلبوا تمثالاً يقام لهم، ولا قبة ترفع فوق أضرحتهم ولا صفحة خاصة من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم، ولا قطرة غيث تبل ثراهم فما كان أقنعهم وأزهدهم!

الزهرة الذابلة

ورد إلي من صاحب التوقيع الكتاب الآتي:

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح، غير أني عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذي ضعضعني وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أَصابني «الصمم» الكامل فضاعت بذلك آمالي وأظلمت الأرض في وجهي فرأَيت أن أستغيث بك لعلك تسدي إلي جميلاً بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام.

٦ يناير سنة ١٩١٤.

لا أَستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بني، فهو فوق ما يحتمل المتحمل، ويطيق الجلد الصبور ولو حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك، ولكان شأني معك شأن أولئك الخادعين من المعزين الذين يتخلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقولوا للثاكل «لقد قدمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك» وللباكي أباه «ما مات من خلف مثلك» وللباكي أخاه «إن في الباقي عزاء عن الماضي» وللباكية زوجها «الشباب غض والرجال كثير» وللفاقد بصره «حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك» وللمحتضر المشرف «إن في لقاء ربك عوضاً من لقاء الدنيا» ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك «لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء» وكأنما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرىء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه، هان عليه هذا لذاك واغتفر ما فات لما هو آت، ولا يعلمون أن الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب أو نفثة من نفثات الود، ولا دخل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك، وإن أقسى الآباء قلباً، وأصلبهم فؤاداً، لو ساومه مساوم في فلذة

كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء لكان رأيه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله:

وما سرني إن بعته بثوابه ... ولو أن التخليد في جنة الخلد

وإن الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من أولادها، والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه في كل محلة يحل بها، والزوجة تبكي زوجها وإن كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها، وإن البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكاً وبؤساً يضن بحياته الضن كله إذا أَحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السموات والأرض، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أَحزانهم وازدرائهم، وتصغير شأنها في أعينهم، ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس بإحساسها وتشعر بشعورها، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها.

وأعوذ بالله أن أكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك، أو الغاشين لك فيها، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت، وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من يستطيع أن يعزي نفسه عن مصابه فيك، فقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك، حتى صرت كأني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعاً من سبب وصلة، فأصبحت وأنت في دار الأنس والاجتماع، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم، لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها أحد، ولا ترى بين يديك إلا نصباً مائلة، وتماثيل جامدة.

تحسبن العين أنهم جدا أحياء ... لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء، ولا رنة حداء، ولا خرير نهر، ولا تغريد طير، ولا حفيف شجر، ولا زفيف ريح، ولا ثغاء شاة، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير جندب، سواء لديك ليلك ونهارك: وصبحك ومساؤك، ويقظتك ومنامك، فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من

المجتمعات العامة فجلست إلى الناس ساعة تتفرج[1] فيها مما بك، لا تسمع شيئاً مما يقولون، ولا يعنيهم أن يسمعوا شيئاً مما تقول، فإن قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفاً من حروفهم، أو تتفهم حركة من حركات شفاههم، أو إشارة من إشارات أيديهم، أنكروا عليك نظراتك، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم ورموا بها في وجهك من حيث لا تعلم، فإن رأوا منك أنك تقتضب الأحاديث اقتضاباً، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم، وأنك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم، فتعلو به عليها، أو تنزل به دونها وأنك تبتسم في موضع التقطيب. وتقطب في موضع الابتسام أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التي ينظرون بها إلى الأطفال الصغار والبله الأغرار فإن ألممت بسر نظرتهم هذه إليك ألم بك من الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه إليك، وكل ابتسامة تتراءى لك، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس إليك من أصدقائك وعشرائك، بل من أبويك وأهليك فلا يكاد يسلم لك صديق، أو يصفو لك حميم.

فإذا فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت إلى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في أيامك الأولى، وما انتهى إليه أمرك في أيامك الأخرى فلا تنفعك خلوة ولا يؤنسك اجتماع.

وأخوف ما أخاف عليك أن أستمر بك هذا الشأن ـ ولا أسأل الله لك دوامه ـ وظللت تنطق ولا تسمع، وتقول ولا تفهم ما يقال ان تصبح في يوم من أيامك لا سامعاً ولا ناطقاً، فالسماع مادة النطق التي يستمد منها قوته وحياته، ومن لا يسمع لا يحسن النطق، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير.

وكثير عليك يا بني وأنت زهرة يانعة في روض الشباب وابتسامة لامعة في ثغر الآمال. وفجر مشرق في سماء الحياة أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة، فلا تلبث إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلاً حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء.

فوارحمتاه لك يا بني مما بك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر غداً، فأسأل

---

(١) طلب الراحة والفرجة.

الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك، أو يمنحك عيناً ثرة من الدمع لا ينضب معينها، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته، وتفثأ لوعته، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الأرض ولا في سبيل من سبل السماء ناصراً ولا معيناً، والسلام عليك ـ من الراثي لك، الباكي عليك ـ ورحمة الله.

الوجهاء

جرى بيني وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتي:

الكاتب ـ ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء، من السحب السوداء؟

الوجيه ـ إن بين جنبي هماً يعتلج، وكمداً يذهب باللب ويطير بشظايا القلب، وناراً من الحزن متأججة متطربة دخانها هذا الذي تراه.

الكاتب ـ أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصر غمدان، وخورنق النعمان، وحور وولدان، وظل ظليل، ونسيم عليل، وخزائن تموج بالذهب، موج التنور باللهب، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس! وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك؟

الوجيه ـ أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر، والشقاء المقبل في السعد المدبر، وإني لأرى في السماء غمامة دكناء توشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى والكارثة العظمى.

الكاتب ـ ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الأحرف الذهبية، ألا يسدد سهمه إليك، ولا يدور بدورته عليك.

الوجيه ـ متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه، فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي، يديرها فترى الأسود في مكان الأبيض، والأبيض في موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد.

الكاتب ـ هل لك أن تحدثني من أي منفذ نفذ الدهر إليك وما عهدتك

شارباً ولا عاهراً، ولا مقامراً ولا مستهتراً؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه إلى خزائن الأغنياء غير هذا المدخل.

الوجيه ـ أين يذهب بك أيها الصديق، وهل يؤتي الأغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة؛ وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم، إلا الشغف بنظرة الأمير، ولفتة الوزير، وزورة المدير، وأنت تعلم أن رجلاً مثلي لا يمكن أن يكون له مطمع في المجد الصحيح، فلست بصاحب علم فأفخر به، ولا صاحب قلم فامتُّ بما يمتّ به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ولا سبيل إليه ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز روكفلر، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة، في بناء القصور نزلاً للحكام، وغرس البساتين منازه لهم؛ وإعداد الفرش والآنية لمآربهم وولائمهم؛ فلما نضب معين الذهب، وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر لجأت إلى مصرف من المصارف المالية فأثقلني بالديون، وأرهقني بالطلب ففزعت منه إلى آخر، ثم إلى آخر فكنت كناقس الشوكة بالشوكة، أو غاسل الدم بالدم ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار، ودور وقصور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائد الصيارف، وهأنذا اليوم طريق المصارف والغرماء، وغريم القضائين: قضاء الأرض وقضاء السماء.

ذلك كل ما يستفيد الوجه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتي به، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب، وزخرفة الباطل ولا تنفس عليه بؤسه الكامن، وشقاءه الخفي، فهو أتعس خلق الله، وأكثرهم هماً وأثقلهم مؤونة، وأخسرهم حاضراً ومستقبلاً، يكون عنده من الضياع أو العمائر جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهاً، والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير، كأنما هي عندهم من جوامع الكلم، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمدّ لكل غريب نزل بلده مائدة، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيه، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وإن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ويبتاع تذاكر حفلات الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشكالها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان، وجمعيات الرفق بالإنسان، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه

المدير أو المأمور بابتياعها وإن كانت في علم الأرتناطيقي أو علم المنطق وكان هو عمدة أو شيخ بلد، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في سالف الأزمان، والتي لا فرق بينهما وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأملاك.

الكاتب ـ إنها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحاً، ولا تعد لكم سجناً، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة.

الوجيه ـ لا أزال أكرر القول: إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد، مجبور باطناً مختار ظاهراً، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه، وأما الباطن فهو أن الوجيه منا ـ كما علمت ـ مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم، فمنا من يزوره المدير أو المفتش لأنه وهاب الآلاف، أو المأمور لأنه من أصحاب المئات، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل، ولا يشيعه إذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعاً، ولا يكتب رقماً في قائمة اكتتاب، فلا يلبث أن يسلس قياده، ويصحب عناده، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحاً، أو تعد لهم سجناً، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و «الويركور» و «البطانطا» والعوائد الشخصية في عدة أعوام، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام ـ عام الأزمة والجدب ـ فوجدت أني دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية.

الكاتب ـ هب أن الأمر صحيح كما تقول، فالحكومة لا تودع هذا المال خزانتها، ولا تقضي به غرضاً من أغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها، وتقدمها وارتقائها.

الوجيه ـ ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من

أموال الأمة لهذه الأغراض التي تذكرها، ولكنها تضن بمال هي في حاجة إليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الأجانب منهم وإقرار عيون السياح الأوروبيين بالمناظر البهجة والمشاهد الجميلة، فلا ترى لها بدأً من حمل تلك الحمالات على أعناقها بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما تتكبده في هذا السبيل مما يذيب الشحم، ويعرق العظم، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها، فقد حكي عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة أنهم شاقوا به ذرعاً فأحضره في مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا أحتفل، ثم أمر أن تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم، فقال له هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية، متفرقاً تحتمله، لا مجتمعاً تتألم له.

الكاتب ـ حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال في سبيله، وللآخرة خير وأرقى.

الوجيه ـ من أين يأتيني الثواب والأجر، وهل يثاب المرء إلا على قدر نيته وإخلاصه في عمله؟ وإني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من أحوالهم. ومارست من طباعهم، أننا لا نريد من بذلك ما نبذل إلا رضا الحاكم، والتودد إليه، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة، وقضاء المآرب والحاجات أخرى، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا، واستحجرت أفئدتنا، حتى أن أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره البائس الفقير إلا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهد فينا الفقراء، ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا وجفانا ذوو الرحم والأقرباء، وأصبحت قصورنا في نظرهم قبوراً يستدرون لها الرحمات، لا مناهل يرجون منها الصدقات. وأقفرت «مضايفنا» إلا من عربدة المطربشين ورطانة المبرنطين فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله؟!

الكاتب ـ أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟

الوجيه ـ قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل.

الكاتب - أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه، وتمد يدك إلى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه، فقد زعمت أن مجد القربى من أَولياء الأمر باطل، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به، وما نهوضك إليه، ومالك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه، وسوء مغبته، ولقد كان طريق مختصر إلى المجد الصحيح والشرف الصميم، لو كنت أكبر منك همة، وأصح رأياً، وأقوى عزيمة، فمجد الكرم ليس بأقل شأناً من مجد السيف والقلم ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب وما كان يصيبك في الأول من الشقاء ما أصابك في الثاني، فالكريم معان على أمره، ومبارك له في عيشه، متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء، من حيث لا يبتغي على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى، ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجنتموها من دونها، وأبت لكم همتكم الضعيفة أن يكون لكم كما كان لأمثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجيء والمستشفيات تسمى بأسمائكم، وتسجل في صحيفة أعمالكم فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولكم، ويلعب بأموالكم، ويرغمكم على الإحسان إرغاماً، من حيث يكون له الغنم، وعليكم الغرم، فلا ذكراً حصلتم، ولا مالاً حفظتم! وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون.



جرجي زيدان

لا أعلم أَين تذهب نفس الإنسان بعد موته، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها، فإن كان صحيحاً ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذاً يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل، وثناء عاطر، وسيرة صالحة ومجد باق، فإن نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار، وصالح الأعمال أوفر الأنصبة وأجزلها.

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة، ولا أغلى جوهراً، ولا أحسن أثراً من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب، فهو يعتقد أنه مجزى على عمله، مكافأ به، مؤمناً كان أم ملحداً، معترفاً بنعيم الآخرة أم منكراً له، فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها، ولؤلؤها ومرجانها، وروحها وريحانها، وإن كان الثاني ساقه إليه شغفه بالذكر الجميل، والسيرة الصالحة، والحياة الباقية في ألسنة الأجيال وبطون التواريخ ولولا هاتان الجنتان، جنة المؤمنين وجنة الملحدين، ما جدّ في هذه الحياة جاد، ولا عمل فيها عامل.

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العمل الصالح والجزاءعليه معاً؛ وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفىء ذبالة حياته؛ وتحترق فحمة شبابة؛ حيث تموت في قلبه لذة العظمة، وتنضب في فؤاده شهوة المجد، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أُخرى غير هذه الحياة، إما حياة الأجر؛ أو حياة الذكر.

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعاً؛ أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظراً من أجمل المناظر وأبهاها، لأنه يعلم أن هذه الدموع التي نرسلها وراء نعشه أن نمطرها فوق ضريحه إنما هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه، والإعتراف بفضله، والثناء على عمله، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد، وعظمته الباقية، وذلك ما كان يريد أن يكون.

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاءه، وبكاه جاره لأنه كان يجد في جواره لذة الأنس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارىء كتبه لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة، وجمال الأسلوب، وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها، وبكاه قارىء رواياته لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها، عوناً له على هموم الحياة وآلامها، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله.

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها، أو صورتها التي تتشكل بها وتأخذ منها الأغراس نماءها، والأزهار ألوانها، والنار حرارتها، والأجسام الحية قوتها، والأجسام الجامدة صورتها، والأجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهائها وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد.

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب، وينشىء أجمل الروايات ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آن واحد، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره. ولا يشكو مللاً ولا ضجراً، ولا يتشعر خوراً ولا فتوراً، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه أن قليلاً من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير، والعمل القليل.

ولو شئت أن أقول لقلت: إن جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييراً كلياً، وغرست في صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل، والشجاعة والإقدام، والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون

ويترجمون، وينشؤون الجرائد والمجلات، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية، وحياة أمتهم الأدبية، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها، ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها فأما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية.

وكان شريف النفس بعيد الهمة، متجملاً بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز. ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب وهو المسيحي الأرثوذكسي تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة إذا رآها ولا يشمت بالسيئة إذا عثر بها، فاجتمع بين يديه في مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها، عربها وعجمها، جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الأوروبيين الذين لا يثقون في خبر من أخباره، ولا في بحث من أبحاثه، بحديث شيعته وأبنائه، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه، وميول نفسه، وخواطر قلبه أمام الأمانة والعلم، والوفاء بحقه.

وكان مستقيماً في عمله، أميناً في علائقه، لا يكذب، ولا يتلون ولا يخيس بعهده، ولا ينكث وعده، ولا يكسو بضاعته لوناً غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطاً من شروط الربح، ولا سبباً من أسباب النجاح.

وكان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه، وقالوا إنه شوه وجه التاريخ الإسلامي، وعبث بحقائقه، ولم يسألوه من أين نقل، ولا كيف استند؟ بل سألوه لِم لم يكتبه كما كتبوا؟ ويستنتج منه مثل ما استنتجوا؟ كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً حتى أرادوا منه أن يكون مسلماً متعصباً، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون

وينهج فيه كما ينهجون، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله، وخبث النية في مذهبه، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الجامحة على أن يقولوا: إن الرجل باحث مستنتج، يخطىء مرة ويصيب أخرى، أو يقولوا إن له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك، وما أحسب أن أحداً منهم كان يعتقد شيئاً مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى، وإن سلعته ملك لهم، ووقف عليهم، لا يجب أن تعرض في حانوت غير حانوتهم؟ وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه، واستثقلوا ظله، وقالوا مرة: إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى، وقالوا أخرى: إنه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقاً أو متجراً، فما هو بمخلص ولا بأمين، وفاتهم ـ عفا الله عنهم ـ أنه إن كان ضيفاً فليس من أدب الضيافة، ولا من خلال المروءة والكرم: إن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده، وأن يعد عليه لقيماته التي يطعمها على مائدته، وإن كان تاجراً فقد باعهم بهذا النذر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله، وينبوع ذكائه ومادة حياته، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين.

والله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الإيطالي وللفاجر الأرمني أن يفتح كل منهم في كل موطىء قدم من مدنهم وقراهم حاناً يسلب فيه عقولهم، أو مقمراً يسرق فيه أموالهم، أو ماخوراً يهتك فيه أعراضهم، فلا يطاردونه ولا يحاربونه، ولا يسمونه دخيلاً ولا واغلاً؟ ثم يضيقون ذرعاً بالعالم السوري أو العراقي أو المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم، ويهذب نفوس أبنائهم، ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط، والشجاعة والإقدام.

ذلك هو شقاء الأمم، وهذا هو جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها.

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله، بل كان شأنه معهم إن كان يعتب عليهم ولا يشتمهم، وينبههم إلى أدب المناظرة وواجباتها، ولا يؤنبهم، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم، ولا يمكر بهم، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم، وإن كان مخطئاً، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة

التعصب والجهل، وسوء الخلق، وضيق العطن، وإن كانوا مصيبين.

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في بناء الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة، فعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتموا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرة واحدة في دم الفضيلة والشرف، فإن تم لهذه الأمة في مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شؤونها وأغراضها فلنتذكر دائماً أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرض هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والأخلاق.

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وإنما الذي يعوزنا روح عالية تخفق في سماء هذه الأمة خفوق النجم الزاهر في سمائه، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها فتبعث العزيمة في قلب العاجز، والشجاعة في فؤاد الجبان، وتقوم من الأخلاق معوجها وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف: إن قيمة المرء في حياته أداء واجبه للإنسانية أولاً ولأمته ثانياً، ولنفسه أخيراً، وإن الحب سعادة الإنسان، والبغض شقاؤه وبلاؤه وإن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه، وإن الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وإن الله تعالى أوسع رحمة، وأعلى حكمة، من أن يسدّ في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار، وإن هذه الأحقاد النيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها في صدورهم الأديان نفسها، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل، وإن الذين يقدسون الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين، ومقوماً من مقوماته، إنما يقولون من حيث لا يشعرون: إن الإلحاد في العالم، والفوضى الدينية فيه، وعبادة الشمس والقمر، والترب والحجر، أنفع للمجتمع وأحسن عليه عائدة من عبادة الله المعبود.

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الأرواح العالية تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلاً ثم فقدناها أحوج ما كنا إليها، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه.



الكاتب كالمصور، كلاهما ناقل، وكلاهما حاك، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس.

وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس، خيال المكنون في النفس.

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائماً إلى الكتابة والكتاب، وأوزان بها بين أقدارهم ومنازلهم؛ كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته، فأتخيله مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

وقليلاً ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه لأن الكاتب إن استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه، أو براعة معناه، أو سعة خياله، أو قوة حجته، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين.

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه في طهارة لسانه، وصفاء ذهنه في وضح أغراضه ومراميه، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه من مجاراة المتكبرين من الكتاب في كبريائهم. ونزوله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون لأنه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الألفاظ ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون.

وإن كان الرجل هو الأسلوب كما يقولون، فلا أعلم أن أحداً في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان، فوارحمتاه له، وواأسفاً عليه.

احترام المرأة

نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أَمره، وسر حياته؛ من صرخة الوضع إلى أنة النزع.

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الأم، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيلا إلى قلب واحد، يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد، وهي التي تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله، غير شاكية ولا متبرمة، بل تزداد شغفاً به، وإيثاراً له، وضناً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت إن سر الحياة الإنسانية، وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة هي «قلب الأم».

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلاً حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته، وتعتمد في شؤون حياتها عليه، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد، وما نصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شؤون حياته، وسلوك الجادة في سيره، ولا هداه إلى التدبير ومزاياه، والاقتصاد وفوائده، والسعي وثمراته، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة؛ والدأب والمثابرة، مثل دموع الزوجة المنهلة، ويدها الضارعة المبسوطة.

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف، والحب والإيثار، ما يجد في قلب ابنته الفتاة، فهي التي تمنحه

يدها عكازاً لشيخوخته، وقلبها مستودعاً لأسراره، وهواجس نفسه، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه، وتصغي إلى أناته، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه، ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظمى لا يهونها عليها، ولا يخفف من لوعتها في نفسها، أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون، ويشتجرون في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات.

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحزان، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة، لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسرات أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها.

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول أن الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنياً بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك.

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها إلينا وجازيناها بها خيراً؟

لا . . لا، لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا وخوالج نفوسنا فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والإجلال، وهي إلى نهلة واحدة من نهلات الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من الحب والغرام.

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد، لا رحمة الصديق بالصديق وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء، لا عفة النفس والضمير، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق في الوصول إلى ذروة الإنسان التي تريدها، والمتع بجميع صفاتها وخصائصها؛ بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة؛ أو لنتخذ منها ملهاة لأنفسنا، ونديماً لسمرنا ومؤنساً لوحشتنا؛ أي أننا ننظر إليها بالعين التي

نظر بها إلى حيواناتنا المنزلة المستأنسة لا نسدي إليها من النعم، ولا نخلع عليها من الحلل، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً.

إنها لا تريد شيئاً من ذلك، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته، ولا أداة لهوه ولعبه، بل صديقته وشريكة حياته.

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه.

إنها لم تخلق من أَجل الرجل، بل من أَجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه.

يجب أن ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً مستقلاً، وحياة ذاتية، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها، لا أَمام الرجل.

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح، وتستروح رائحته الأَريجة، ليستيقظ ضميرها الذي أَخمده السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها، ومراقبة حركاتها وسكناتها، فهو أعظم سلطاناً، وأقوى يداً من جميع الوازعين المسيطرين.

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات.

لا يمكن أن تكون العبودية مصدراً للفضيلة، ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور، والموت علة للحياة، والعدم سلماً إلى الوجود.

كما لا أُريد أن تتخلع المرأة وتستهتر، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأَنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها، كذلك لا أَحب أَن تكون جارية مستعبدة للرجل، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير.

وبعد؛ فإما أن تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه أو أقل منه. فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق، والنظير للنظير، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده، أي أنه يعلمها

ويدربها، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذي هو فيه، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم. والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه.

الانتقام

«مترجمة»

- ١ -

قضى المسيو «كابربني» برهة طويلة من أيام حياته سعيداً مغتبطاً بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه إلى الناس جميعاً، ثم نكبه الدهر نكبة عظمى ذهبت بماله وبزوجته، فبكاهما ما شاء الله أن يفعل ثم بلى حزنه كما تبلى جميع الأحزان في قلوب الناس، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنته «إلين» ليتولى تربيتها وإسعادها، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل، ثم لم يزل يجد ويجتهد في خدمة العمل الذي وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلاً لذلك المصرف، فكان يعمل فيه سحابة نهاره ثم يعود ليلاً إلى منزله فيرى ابنته منهوكة مضعضعة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة شؤونه فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها ففعل وكان سيء الحظ في اختياره، فتزوج من امرأة فاسدة خليعة لا هم لها في حياتها سوى ترفيه عيشها، وتدليل نفسها، والتقليب بين أعطاف شهواتها ولذائذها، فلم ينتفع منها بشيء، بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه، ولكن ماذا يعمل وقد وضعت السلة في عنقه وانتهى الأمر، وأصبحت ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها، وأميرة نفسها، أسيرة في يد امرأة قاسية داهية تسومها أنواع الخسف، وألوان العذاب، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد، وكانت تكتمه أباها كتماناً شديداً ضناً براحته وسكونه بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها، رحمة به وإشفاقاً عليه.

وكثيراً ما كان يعود إلى منزله في بعض لياليه حاملاً بعض دفاتر المصرف في يده ليتمم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن إتمامه هناك، فيجلس إلى مكتبه

ساهراً ليله، مكباً على عمله، ذائداً النوم عن عينيه حتى يغلبه على أمره فينام في مكانه والقلم معلق بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وعشرائها في بعض الملاعب أَو الحانات راقصة لاهية عابثة بجميع الفضائل الإِنسانية، فإذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت إليه برفق وهدوء، وجلست على كرسي أَمامه واجتذبت إليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ثم توقظه بعد ذلك لينام في فراشه فيشكر لها يدها ومعونتها ثم يسألها سؤال الممتعض المتمرمر: ألم تعد فلانة حتى الآن؟ فتجيبه أن لا، فيذهب إلى سريره حاملاً بين جنبيه من الهم والألم ما الله به عليم.

وجملة القول أنه كان شقياً منحوساً، يسير من شؤون حياته في ظلمة داجية، لا ينتهي بصره فيها إلى مدى، ولا يرى في سمائها نجماً يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلمع من حين إلى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة فيتنفس أمامه تنفس الراحة، ويأذن لفمه أن يبتسم في ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور.

فإنه لجالس ذات يوم في غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه إليه مديره وأعطاه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها في دفاتر المصرف فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له إن فتاة من هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهي تكتم اسمها وتأبى الدخول إلى هنا فاضطرب اضطراباً شديداً ومر بخاطره أنها ابنته، وإن حادثاً عظيماً حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه في المصرف وما حضرت إليه فيه قبل اليوم، فترك كل شيء في مكانه وخرج مسرعاً ليراها، فإذا هي بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياة والخجل، وإذا بيدها كتاب تحمله من زوجته فاختطفه منها وقرأه فإذا هي تقول له فيه: إنها تريد أن يرسل إليها في هذا الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حلية جميلة رأتها في بعض المخازن وإنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غداً فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم وأخذ ابنته ناحية وقال لها: بلغيها أنني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً، ولا أستطيع ذلك العام كله، ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها إليه في المصرف وكان لا يحب ذلك منها، فأطرقت برأسها ولم تقل شيئاً لأنها لا تستطيع أن تقول له أن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك، فتزيد همومه هماً جديداً ثم عادت أدراجها.

وكان بين عمال المصرف عامل سيء الأخلاق، فاسد النفس والضمير، ما زال منذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله، عله يتوصل إلى اختلاس شيء من المال، فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلته ابنته ليقدم إليه بعض الأوراق فلم يجده، ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب، فحدثته نفسه باختلاسها، فدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها في جيبه، وخرج متسللاً لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه وما هي إلا لحظة حتى عاد المسيو «كابريني» وفي يده الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته فمزقه وألقى به في السلة، ثم ألقى نظرة إلى المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها، فذعر ذعراً شديداً، وأخذ يفتش عنها في كل مكان فلم يجدها، فاشتد حزنه وهمه وأخذ يسأل العمال والخدم عمن يدخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد، فظل يصرخ صرخات عظمى تقيم المصرف وتقعده فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئاً إلا أنه لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التي جاءت فيها ابنته ضناً بأسراره البيتية أن يعلمه أحد غيره، فارتاب به الرجل، وما كان يعتد عليه بسيئة قبل اليوم، ولا يعرف له ماضياً مريباً ولكنه كان يعلم أنه فقير مقل، فظن به الظنون، وقديماً كان الفقر ينبوع التهم، ومثار الشكوك والريب، وتركه مكانه وخرج إلى العمال والخدم يحادثهم في هذا الشأن عله يصل إلى معرفة الحقيقة، فأخبره البواب أن الفتاة التي حضرت إليه كانت تحمل في يدها كتاباً وأنه أخذها جانباً وأسر إليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً، فازداد شكه وارتيابه وعاد إليه فوجده واقفاً في مكانه مذهولاً يقلب كفيه، فلم يقول له شيئاً، وأخذ يدور بعينيه في أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق عله يعثر بذلك الكتاب الذي أخبره به البواب فلم يجده فألقى نظرة إلى السلة فرأى تلك المزق الصغيرة فجمعها به الكتاب الذي يريده، فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له: إني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلية الجميلة التي أعجبتها فدهش الرجل دهشة عظيمة، ورد عليه ما طار بلبه، وأخذ عليه أنفاسه فصمت لحظة، وبعد لأي ما استطاع أن يقوله له: نعم إنها أرسلت إلي هذا الكتاب ولكني لم أحفل به ولم أرسل إليها شيئاً، بل رددتها رداً قبيحاً لأنني رجل فقير لا أملك هذا المقدار، ولأنني رجل

شريف لاختلسه، ولم يحفل المسيو «لورين» بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ولم يلبث أن رفع أمره إلى القضاء فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل في السجن وكانت ابنته المسكينة في حال من الهم والحزن تستثير الأشجان وتستذرف العبرات، أما زوجته فلم يكن يهمها في تلك الساعة شيء سوى السعي للحصول على ثمن الحلية الجميلة من طريق غير هذا الطريق.

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه، ولا دفاع ابنته عنه، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه؛ لأن القضاة لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلاً عظماً ثرياً مثل المسيو «لورين» صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق؛ أو يخطىء في فراسته وتقديره، وإن رجلاً فقيراً مثل المسيو كابريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل إلى ذلك؛ وكثيراً ما ساقت أمثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء، الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون، وقضت عليهم وعلى أهليهم القضاء الأخير؛ كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم؛ فإن قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه وإحالة إلى محكمة الجنايات.

فأستطير عقل «ايلين» وجن جنونها فلم تجد بداً من أن تذهب إلى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها، وتضرع إليه أن يساعدها على خلاصه، فذهبت إليه في منزله فاستأذنت عليه فأذن لها فدخلت، فدهش دهشة عظمى حين رأى أمامه فتاة جميلة بارعة، بل آية من آيات الحسن والجمال، لا عيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلى الجمال فافتتن بها حين رآها إلا إنه أخطأ في الحكم عليها، كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها فأخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من أجله، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أُخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين، لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم، فأخذ وجهها يربد شيئاً فشيئاً؛ ثم انتفضت انتفاضة الليث في غيله وأَلقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصعق في مكانه، ولكنه كان رجلاً وقاحاً متبلداً فلم يحفل بنظراتها، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها، فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً حتى عجزت، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها، فدارت بنظرها في أنحاء الغرفة تتلمس سبيلاً إلى الخلاص، فوقع نظرها

على مسدس كان فوق مائدته فاختطفته لتهدده به، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته في ذراعه، فصرخ صرخة عظمى، وما هي إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو «لورين» في منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدساً كانت تخفيه في طي ردائها وأطلقته عليه لتقتله فلم تصبه إلا في ذراعه.

وقد كان في استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التي يعرفها حق المعرفة فلم يفعل، ولو فعل لما ضره ذلك شيئاً وما هي إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين.

- ٢ -

خلت «إيلين» سجن النساء لتقضي فيه المدة المقدرة لها ووضعت في غرفة واحدة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءاً عظيماً من حياتها في هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته وجمدت نفسه عليه، فلم تعد تحفل بشيء في هذا العالم ولا تفكر إلا في الساعة التي يقدم فيها إليها الطعام فتلتهمه التهاماً وهي تضحك وتغني كأنما هي سعيدة هانئة، وكأنها أبعد الناس عن الهموم والأحزان، فذعرت إيلين حين رأتها ذعراً شديداً وتسللت إلى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها، واستسلمت لهمومها وأحزانها، ولم تدع قطرة من الدمع في عينيها إلا ذرفتها، وأبت أَن تتناول الطعام الذي قدمه إليها السجان، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فعمدت إلى كتاب صغير من كتب الأخلاق كانت لا تزال تحمله في جيبها ما تفارقه، فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة «العفو أشد أنواع الانتقام» فانتفضت عند قراءتها انتفاضاً شديداً وعلق نظرها بها ما ينتقل عنها، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها، وتستعرضها واحدة بعد أُخرى، وتفكر في المظالم التي نالتها ونالت أباها، وما اقترفا ذنباً، ولا جنياً على أحد حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء، فشعرت بدبيب الشر في نفسها للمرة الأولى في حياتها، وظلت تقول في نفسها: إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات إنما كانوا يعيشون في عصر غير هذا العصر، وبين ناس غير هؤلاء الناس، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهليه رأي غير هذا الرأي،

ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار في كتبهم لأن العفو لا يكون انتقاماً إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التي تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات أما الضمائر القاسية المتحجرة التي لا تعبأ بشيء، ولا تخجل من شيء، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمرداً وطغياناً.

وإنها لذاهبة هذه المذاهب الغريبة في تصوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى إليها اختلاساً حتى وقفت ورائها ونظرت في الصفحة التي تنتظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التي تنعم النظر فيها فقهقهت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت «إيلين» والتفتت وراءها صارخة: ماذا تريدين يا سيدتي؟ قالت: لا تخافي يا بنيتي ولا تراعي، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار، ولكنني رأيتك مستغرقة في هذا الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك: دعي الكتب وشأنها لا تحفلي بها، ولا تعولي على شيء فيها، فإن أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شؤونه شيئاً إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان المريخ، بل هم قوم معتوهون ممرورون، قضوا أيام حياتهم في معتزلاتهم الخاصة المظلمة التي لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه، فملوا وسئموا، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم وتلهوا بما يسري عنهم مللهم وسأمتهم، فأخذوا يدونون هذه المبادىء التي انتزعوها من جوانب أدمغتهم، لا من طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم، ويقرون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها، لا التي تتفق مع طبيعة الكون وخصائصه فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه، ثم يخيل إليهم أنه قد أفلح ونزع، فيطلبون إلى من أجرم إليه أن يعفو عنه، قائلين له: «إن العفو أَشد أنواع الإنتقام» كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الأساسية للنفوس، وكأن الإجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها لا يلبث أَن تهب عليه نسمة من نسمات العظمة والاعتبار حتى تذهب به، فما أسخف عقولهم، وما أقصر أنظارهم، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة، وطبائع النفوس، دعي الكتب يا بنيتي لا تنظري فيها، وانزعي عنك همومك وأحزانك وكلي الطعام الذي يقدم إليك هانئة مغتبطة لا تلوين على شيء مما وراءك. فسيأتي قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا انباب الموصد دونك فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذي أساء إليك وساقك إلى هذا المكان وتنالين منه فوق ما نال منك، كما سأفعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي ساءني وأفسد

عليّ حياتي؛ فليس العفو أشد أنواع الإنتقام - كما يقولون - بل الانتقام أعظم ملاذ الحياة.

فهدأت نفس إيلين قليلاً، واستطاعت أن تتناول شيئاً من الطعام الذي قدم إليها، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباها في منامها يقاسي أنواع العذاب وصنوف الآلام في سجنه؛ فتصبح باكية نادبة لا يهون عليها آلامها بعض التهوين إلا ثرثرة تلك العجوز وهذيانها، حتى نامت ليلة فرأته ميتاً على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مضيئتان، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكي وتنتحب، وما هي إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن فذهبت إليه فبلغها أن أباها توفي الليلة في المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها، ثم استفاقت فإذا هي في غرفة سجنها، وإذا هي أشد عباد الله بؤساً، وأعظمهم شقاء.

- ٣ -

قضت «إيلين» سنواتها الخمس في سجنها ثم خرجت فمشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها: لا تنسي يا بنيتي أن تنتقمي من عدوك الذي أساء إليك، وتنكلي به تنكيلاً عظيماً، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوي مثلك. وهل لمثلي ومثلك في هذه الحياة الشقية البائسة عزاء غير عزاء الانتقام.

فودعتها وانصرفت، لا تعلم أين تذهب، ولا أي طريق تسلك بل لا تعلم أين تجد قوت يومها، أو المضجع الذي تأوي إليه سواد ليلتها، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها وطبع على جبينها اسم «المجرمة» التي خرجت به من سجنها.

ولم تزل سائرة عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب وأحست بالجوع يعبث بأحشائها، فحدثتها نفسها بالانتحار فراراً من الألم، وزهداً في الحياة، وظلت تترجح ساعة بين الأنس بهذا الخاطر؛ والنفور منه حتى غلبها على أمرها فأخذت طريقها إلى النهر؛ وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها؛ وتهطل غيومها؛ وتدمدم رعودها؛ وتعصف رياحها. فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبة مقبلة نحوها من بعد يمزق

نور مصباحيها المشتعلتين أحشاء الظلمات فتريثت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة بها فإذا المسيو «لورين» جالساً بين بضع فتيات خليعات يعابثهن ويداعبهن، ويقهقه قهقهة عالية ترن في أجواز الفضاء، فاختبأت وراء بعض الأشجار حتى مر ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول ها هو ذا المجرم سعيد في حياته، مغتبط بحظه، يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغص ولا يكدر حياته مكدر، وها أنذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حياتي بجريمة، ولم أقترف بيني وبين ضميري إثماً أهيم في هذا الوادي الفسيح على وجهي، لا أعرف لي ملجأ، ولا مأوى، ولا أعرف سبيلاً للعيش ولا مذهباً، ولو عرفت لما استطعت أن أنتفع بمعرفتي، لأنني عند الناس مجرمة قاتلة، ومن ذا الذي يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم!

لا . . . لا؛ لا بد أن أعيش، ولا بد أن أنتقم، وما دامت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف الناس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم.

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة، وقد ودعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء نفسها طول حياتها، وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألىء الذي لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم - ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب - واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس أُخرى غيرها لا صلة لها بها، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المريبين هادئة ساكنة، باسمة متطلقة لم يبق في وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئاً فشيئاً إلى لون البياض لتلحق بأخواتها.

- ٤ -

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك الهوة التي حفرها المجتمع الإنساني لأمثالها من الفتيات البائسات، فظلت تنتقل من يد إلى يد، ومن مضجع إلى مضجع، وكأن الحظ الذي فارقها وتجهم لها في حياة الطهارة والعفة، أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط والفساد، فما هي إلا أيام قلائل حتى طلعت في سماء باريس نجماً ساطعاً متلألئاً تنير كل أفق تشرق

فيه، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها، وتعبث بألباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار.

فإنها لجالسة ذات ليلة في مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المفتتنين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو «لورين» جالساً في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته، فانتفضت حين رأته، وثارت في نفسها ثائرة الغيظ والحنق، وظلت تردد النظر في وجهه طويلاً، فلمحها وهي تنظر إليه، فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها، فقد تغير كل شيء فيها حتى ملامحها وشمائلها، فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعاً وذهب يدور حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه في دهليز المقاصير فسأله عنها، فأخبره أنها السيدة «لوسي» المارسيلية الحسناء أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام؛ فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل؛ فأحسنت ملتقاه وقد أضمرت له في نفسها شر ما يضمر عدو لعدوه وأقبلت عليه تحدثه، وتتلطف به؛ وتمد له الحبالة التي اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله، فما لبثت أن وقعت من نفسه، وملكت عليه جميع مشاعره، ثم رفع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته، وقد حلت من قلبه محلاً لم يحله أحد قبلها.

وفي صباح اليوم الثاني أرسل إليها مع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقداً بديعاً من اللؤلؤ الثمين، فابتهجت به حين رأته، لا لأنها في حاجة إلى العقود والدمالج بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذي تقوده به إلى الهلاك، ثم زارها على الأثر وخر جاثياً تحت قدميها مقدماً لها قلبه وحياته، وكل ما تملك يده أي أنه جثا تحت قدمي تلك الفتاة البائسة المسكينة التي جثت تحت قدميه منذ سنوات تسأله أن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه، وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه، إن كان يعتقد أنه مذنب، فلم يفعل؛ ولو أنه فعل لابتاع بثمن قليل لا يوازي ربع ثمن العقد الذي قدمه الآن إليها قلباً طاهراً نقياً، لم تلوثه الذنوب والآثام، ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش عيشاً طاهراً شريفاً مع خير الزوجات وأفضلهن خلقاً وخلقاً ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة، حتى إذا لوثتها الذنوب والآثام، وأصبحت نهباً مقسماً في أيدي الشهوات بذلوا في سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم حتى شرفهم وحياتهم، فقد ابتاع المسيو «لورين» لخليلته الجديدة قصراً جميلاً أثثه أثاثاً حسناً،

ونزل على حكمها في كل ما تريد وتشتهي، حتى أنفق عليها في عام واحد كل ما تملك يمينه، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس المودعة في مصرفه، فمشى في ذلك المزلق المنحدر مدى بعيداً أشرف منه على الخطر العظيم.

ثم حدث بعد ذلك أن فتحت سوق للإحسان في باريس وكانت «لوسي» إحدى النساء اللواتي وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الإطلاق، فجلست في حانوتها المعد لها، وقد أمسكت بيدها زهرة تعرضها للبيع، وتعد من يبتاعها منها أن يتناولها بفمه من فمها. فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون في ثمن تلك الزهرة، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت «مارسيال» فعرض فيها خمسماية فرنك، فقالت لا أبيعها إلا بألف فرنك فأمسك الكونت، وأمسك الناس جميعاً وإنهم لكذلك إذا بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء وسكون وفي يده ورقة بألف فرنك فوضعها بين يدي لوسي وقال لها: لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتي أحد سواي، فوضعتها بين ثناياها، فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعاً وخاصة الكونت مارسيال، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول: ما رأيت في حياتي صاحب مصرف يذهب في حياته هذا المذهب من البذخ والإسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل وما أحسب أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا، فلا بد أن يكون لصاً دنيئاً يسرق ودائع الناس ويبددها، فويل للمساهمين في مصرفه ورحمة الله على أموالهم جميعاً وكان يتكلم بصوت عال يسمعه الناس جميعهم، وليس بين الأحاديث أسير ولا أذيع من حديث السوء، فمشت كلماته في المجتمعات العامة والخاصة، فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطراباً عظيماً، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف فهالهم الأمر وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الأراجيف، فيسقط سقطة لا قيام له من بعدها، فقروا الاجتماع في يوم معين لمراجعة حسابه، وتفقد أمواله فلما علم ذلك المسيو «لورين» أخذ يزور في الصكوك، ويعبث بدفاتر الحساب، طلباً للخلاص من التبعة، فلم يجده ذلك شيئاً، فقد فهم مجلس الإدارة كل شيء، فلم ير بداً من أن يرفع الأمر إلى القضاء ففعل، والمسيو مستغرق في شهواته ولذاته، جاث ليله ونهاره تحت قدمي خليلته، لا يشعر بشيء مما يجري حوله، لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على الخبر فزاره في منزله ليخبره به فلم يجده، فذهب إلى منزل «لوسي» فوجده، فأخبره أن الأمر قد صدر بالقبض عليه وأنه إن

لم يبادر بالسفر في الحال فقد هلك إلى الأبد، فأشار إلى «لوسي» أن تعد له حقيبة ملابسه وأن تهيء نفسها للسفر معه، وهو أعظم الناس ثقة بها، بحبها وإخلاصها فتظاهرت بالإذعان لأمره، والرثاء له، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة «التليفون» وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب، وأشارت عليه بإرسال من يقبض عليه في الحال ثم أمرت الخدم بإغلاق الأبواب، والوقوف في وجهه إن أراد الفرار ثم عادت إليه، فسألها: هل أعددت كل شيء؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها، ثم انفرجت ضاحكة بصوت عال، فدهش وسألها: ما بالها؟ قالت: لا شيء سوى إنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتي رئيس الشرطة للقبض عليك، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة، فعجب لأمرها ولم يعلم أمازحة هي، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون؟ ووثب من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها: ماذا عرض لك يا لوسي، فقد طلبت إليك أن تهيئي نفسك للسفر معي فهل فعلت؟ فقد دنت الساعة، ولسنا الآن في موقف مزاح، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة، فضحكت ضحكة أخرى، وقالت: قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم على السفر وأشرت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك، وأمرت الخدم بإغلاق الأبواب حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم، فجن جنونه، وقد بدأ الريب يدب في نفسه، وإن لم يفهم لما يرى سبباً، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه، فوجده مغلقاً، فأمرها أن تفتحه فأبت، فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح: أين المفتاح أيتها العاهر؟ فقالت: أتريد أن تقتلني كما قتلت أبي بالأمس؟ فلم يفهم معنى كلمتها؛ ووقف في مكانه ذاهلاً يقول لها: لم أفهم من أمرك شيئاً، ماذا تريدين؟ وما هو رأيك؟ قالت: هو المسيو «كابريني» - وكيل مصرفك بالأمس - الذي اتّهمته ظلماً وعدواناً بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه فكانت نهاية أمره إن مات في سجنه ميتة الأشقياء البؤساء، ولا يعوده من أُهله عائد، ولا يحتضنه إلى صدره في ساعة نزعه محتضن؛ ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الأخيرة.

فاصفر وجه لورين، وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ يحدق النظر في وجهها، ويتراجع شيئاً فشيئاً، ويقول بصوت مضطرب متقطع إذن أنت لست. . . فقاطعته وقالت: نعم لست حبيبتك «لوسي» كما تعتقد، بل عدوتك «ايلين» التي تريد أن تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفسها؛ أنا ايلين التي جئت تحت

قدميك منذ سبعة أعوام تسألك أن ترحم أباها وترحمها فأبيت إلا أن تساومها في عرضها، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فأتهمتها بتهمة القتل كذباً وافتراء كما صنعت بأبيها من قبلها، فصدق القضاة الأغبياء دعواك، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات، كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع أن يحتمله بشر؛ ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها، وكل ما تملك يدها من القوت الذي تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها، وكان لا بد لها من المغامرة بنفسها في إحدى الهوتين، أما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذي نكبها، وأفسد عليها حياتها فآثرت الانتقام على الموت، لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبني سعادته على أنقاض شقائها، وأن يفلت من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام وها هي ذي قد انتقمت لنفسها، وروحت عنها همومها وآلامها.

فنكس رأسه ملياً ثم رفعه وقال: إذن ما أحببتني قط يا لوسي؟ قالت نعم بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذي صرت إليه اليوم، أنت الآن متألم جداً. بل لا يوجد في العالم كله ألم مثل الألم الذي يعتلج في أعماق نفسك، لأنك فقدت في يوم واحد شرفك وكرامتك، ومالك وحريتك؛ وموضع حبك ووجهة آمالك في حياتك، وهذا ما كنت أريده وأرجوه، وهذه هي الساعة الوحيدة التي شعرت بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتي.

فنظر إليها نظرة منكسرة دامعة وقال لها: ما كنت لأحفل بخسران شيء في الحياة لو أنني ربحتك يا لوسي، أما وقد أصبحت يدي صفراً منك فلا خير في العيش من بعدك، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه، حتى حضر الجند فاعتقلوه، وساقوه إلى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه، ولا يلتفت وراءه، وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره.

- ٥ -

نعم إن الانتقام لذيذ جداً كما يقولون، ولكنها اللذة التي يعقبها الندم والأسف وتأتي على أثرها الحسرات والآلام، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمل

بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها، والفرق بينهما أن القاضي يصدر في رأيه عن نفس هادئة مطمئنة قادرة على الروية والأناة والمقارنة والمقابلة والوزن والتقدير، والمنتقم يصدر في عمله عن روح هائجة محتدمة لا هم لها إلا أن تلتهم وتستأصل، وتأتي على كل ما تستطيع الإتيان عليه، فهو يقضي قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه، بل ليجرح نفسه ويؤلمها، وينال منها أقصى ما يرى أنه كاف لشفاء حقده، وإطفاء غلته، فيجازى على الشتم بالضرب، وعلى الضرب بالقتل، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ولا يأبى أن يأخذ البريء بذنب المجرم؛ والجار بذنب الجار، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه والدافع له، وكل جريمة تترك في نفس صاحبها نصيباً من الألم والحسرة بمقدارها، ما من ذلك بد، ولقد صدق الذي يقول: إن العفو مرارة ساعة النعيم إلى الأبد وإن الانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى.

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب «لورين» وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية؛ وتقلب صفحاتها صفحة صفحة، فشعرت بدبيب السآمة والملل في نفسها، وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة تافهة مملولة لا طعم لها، ولا لذة فيها، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً، وأخذت تسائل نفسها هل أصبت فيما فعلت أم أخطأت؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت؟ وهل كان خير لها أن تلقي بنفسها في عباب الماء عندما فكرت في ذلك يوم خروجها من سجنها؟ أم تعيش لتضحي بعرضها وكرامتها في سبيل انتقامها؟ وهل خرجت من المعركة التي خاضتها ظافرة تمام الظفر، أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذي انتصرته؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جواباً يرضيها، حتى مضى الليل إلا أقله، فحاولت أن تأوى إلى مضجعها فلم تستطع؛ وأن تسري عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت؛ فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها، وأنها لم تسيء إلى الرجل الذي أرادت منه بقدر ما أساءت إلى نفسها؛ فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها، حتى يوافيها أجلها.

دخلت المستشفى، وأخلصت إلى الله في عملها، فسهرت على المرضى، وأحسنت مواساتهم وبذلت في ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه؛ حتى أصبحت مضرب المثل في صلاحها وتقواها، ورحمتها، وإحسانها.

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو «لورين» بالسجن عامين، فلقي في سجنه من التاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله فسقط مريضاً لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس، حتى اشتد به المرض وأشرف على الهلاك فنقلوه إلى المستشفى الذي كانت تعمل فيه «إيلين» فعرفته حين رأته رغم تغير صورته، واستحالة حالته، فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء، وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وظلت على ذلك عدة أيام وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله، حتى استفاق في ليلة من الليالي فرآها واقفة بجانب سريره تمد إليه يدها بالدواء، فظل يحدق النظر في وجهها طويلاً حتى عرفها فتناهض من مكانه وأكب على يدها يقبلها؛ ويسألها العفو عن ذنبه إليها، فازداد نشيجها وبكاؤها، وقالت له: إنني أنا التي أسأت إليك، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح، وكأن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها، فلم يبق في قلبها إثر للبغض والموجدة، وأصبحت سريرتها بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان، ولا تنطوي إلا على حب الإنسانية الإنسانية وحب الله.

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمر مثله الأم لواحدها، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها وما تهدأ ولا تفتر، ولكن الداء كان قد تمكن منه فلم يغن عنه العلاج شيئاً، وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه؛ وتلقي في روعه إن الله غفر له جميع سيئاته في حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام، والهموم والآلام؛ وأن جوار الله في دار جزائه خير له من جواهر هذه الحياة الباطلة الفانية؛ حتى أسلم روحه بين ذراعيها.

وفي صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرة بهدوء وسكون في طريق الدير؛ وقد لبست مسوحها وسوادها وعلقت صليبها على صدرها حتى بلغته؛ ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله إلى الأبد؛ فدخلته وكان هذا آخر عهدها بالعالم وما فيه.

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرة، ويصفر أُخرى، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه: ما له لا يتكلم، فوالله إنه للخطيب اللبيب!؟ فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وهو غير ملوم إن جزع.

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأحرجها، وأذهبها بالعقول والألباب فما أشبه هذا البطل الباكي، بذلك البطل الجازع.

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها إلا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل.

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح، أو نباهة المؤرخ، أو بلاغة الشاعر، أو إبداع المبدع في معانيه، إو إحسان المحسن في إلقائه، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكي الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً؛ شيوخاً وشباناً، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال.

ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه، أو عالماً كان ينتفع بعلمه، أو كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه.

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر. فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاء، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمراً، وتارة يكون خلاً؛ ويكون حيناً صافياً وأُخرى كدراً، والوعاء باق على صورته لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها؛ فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك، فليعلم الناشىء المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون.

لا يضطرب اللفظ إلا لأن معناه مضطرب في نفس صاحبه، ولا يغمض إلا لأن معناه غامض في نفسه، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام؛ ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع، وما البيان إلا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، أو مضيئة فهو مضيء، أو مظلمة فهو مظلم، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه.

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيدها، والغاية الأخيرة منها، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينيه، فقد أتى بأجمل المعاني في أجمل الأساليب.

وإن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف:

وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

لخير ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة، والخواطر المبتكرة لا تمثل الحقيقة، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبي التي مطلعها:

أيطمع في الخيمة العذل

ويقولون أيضاً عن هذا البيت:

أنى يكون أبا البرية آدم ... وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون، فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت بل المعنى خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه، فألصقوه به إلصاقاً، وتوهموه له توهماً، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً، وهذا شأن جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق، أو كلمة غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين، أولى من أن تكون معاني القائلين.

إذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك، وأنت ثائر، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها، فاعلم أنه من بيوت المعاني، وأن هذا الذي تركه في نفسك من الأثر إنما هو روحه ومعناه، وإن مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه، وثقل عليك ظله، وشعرت بجمود نفسك أمامه، وخيل إليك أنك

بين يدي جثة هامدة لا روح فيها، فاعلم أنه لا معنى له، ولا حياة فيه، فإن وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراءه هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن في طياتها، فكذبه، وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لا عودة لك من بعده.

هذا هو الميزان الذي يجب أن تزن به الكلام، ونصيحتي إليك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة، ويزعمون أنها للشعر عامة، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع، فكما أنك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال، ولا تلجأ إلى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن، وكذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام، واستهجان ما تستهجن منه، إلا على شعور نفسك وإلهام حسك.



الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء. ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، واكتناه أسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها والروح السارية فيها، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحججها وبراهينها، والشعر غذاء النفس برنانه ونغماته، وأهازيجه ونبراته.

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى إلى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه إلا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده، وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر.



الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه، فأصبحوا متبذلين في شهواتهم مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبة ولا يخشى عاراً وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الأشراك لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلاً!؟

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التي هي أشرف الصلات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات وأن الحبالة التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي حبالة القلم الذي هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان، وتعرضونها في كل معرض، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق، وتأخذون عليهن كل سبيل، وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن، وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو برزن في مجتمع، فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها علها تنفرج لكم عما تحبون؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلاً موقعاً عليه بتوقيعاتهن، مستشهداً عليهن بصورهن وخطوطهن، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم، والحياة بعيداً عنكم في جو غير جوكم، وجوار غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران المواخير؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا هم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه، ويتكسر في مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهداً شعره بالترجيل، وبشرته بالتنضير، وثناياه بالصقل والجلاء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقاً ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلام على الفضيلة والشرف، سلام من لا يرجو عودة ولا ينتظر إياباً.

إن هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها، وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها.

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم

الفتيات اليوم! وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الأجواء جميعها وملأتموها سموماً وأكداراً.

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج، وخير أم للولد، وخير سيدة للمنزل.

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم، بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفزع في أمركم إلى القانون، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا إلى الحكومة، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها: ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا إلى آبائكم وأولياء أُموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم، بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم، فاصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم.

أصغوا إليه تسمعوه يقول لكم: إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا إليهن أعينكم وأيديكم إنما هن إخواتكم الحميمات يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل، وأم واحدة وهي البلد، وشرف الأخوة وهو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن.

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها. لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها؛ فلما تزوجت ـ وكان لا يحب ذلك منها ـ أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها، فما لبثت أن خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها.

وحدثني من أثق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج، أي بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهم، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

نحن في حاجة إلى أن نعلم بناتنا، لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن؛ ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

افسحوا الطريق لهن، وافسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها، والأرمل المسترزقة لبنيها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، والسائرة لزيارة قبر فقيدها، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الأرض سعياً وراء رزقها، وقضاء مصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطيئتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلة الفضيلة أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقي لها إن ضاعت ـ لا قدّر الله ـ جميع آمالها وأمانيها، والشرف الشرف فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئاً سواه.

المؤتمر الإسلامي

سرني منظر ذلك الرجل[1] العظيم، والداعي الكريم، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبيه همة عالية، ونفس كبيرة وقلب مشيع، وفؤاد في الأفئدة، كالنسر في الطيور، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه.

سرني منظره، وإن لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، إلا أن تلك عربية تدعو الأعجمية، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى.

هنا ذكرت الإسلام ومجده، والإسلام وجنده، والإسلام ودولته، والإسلام وصولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحاً أسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره، حتى اقترب منه فتبينه فإذا هو أعرابي قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والأعرابي راكب لا يعرفه ويسأل ما فعل الله بسعد وجنده، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره، وتراث مرازبته ودهاقينه، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع، وفرحاً بما تم وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، إلى حيث يستنقذ الثغور، ويستخلص الأمصار ويخوض جمرة الحرب المتأججة ليفتدي بنفسه

---

(١) كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير إسماعيل بك غصبرنسكي الروسي إلى مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة إلى مؤتمر إسلامي عام.

أجساماً إن لم تلتهمها النيران فكأنه قد من صخر، وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبي بكرته ويخترق بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد في معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوروبا، وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالي وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاوية وسياسته، وعبد الملك وكياسته، وذكرت مدارس بغداد وبخارى والإسكندرية والقاهرة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة، وذكرت مترجمي كتب إقليدس وبطليموس وأرسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء وذكرت مخترعي البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعاً شديداً، وسموها شيطاناً رجيماً أو آلة سحرية أو مكيدة عربية إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية.

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته، ورماه بنكباته، فأصبح أثراً من الآثار، وخبراً من الأخبار، وعليلاً حار فيه أطباؤه، ومله عواده وظل مترجحاً بين داهيتين، ومضطرباً بين غايتين إما أن يموت موتة أبدية ـ وبالله العياذ ـ أو يحيا حياة مادية، لا حياة أدبية، وينهض جامعة تجارية، لا جامعة دينية؛ ما دامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا في فضاء من الحرية لا ينتهي البصر فيه إلى مدى، لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه على رسائل الحب، وأناشيد الغرام، وأمضني ما يمض العاشق المفارق، إذا مر بالآثار وأطلال الديار، فرأى النوَّى والأحجار، وموقد النار، ومجال الخيول، ومجر الذيول، فذكر ما كان ناسياً، وهاج من وجده ما كان كامناً، فبكى واستعبر.

وود بجدع الأنف لو عاد عهدها ... وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه.

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار، والأحياء والأموات، والأبواب، والكوي، والقواعد

والأساطين: تبركاً، أو تقرباً، لفظان مترادفان، مختلفان لفظاً متفقان معنى، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه،

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوباً، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتاً، بل آحاداً وأفراداً، فلا تراحم ولا تواصل، ولا تعارف ولا تعاطف، حتى بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه.

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوتار، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات، وكان أفظع ما في جرائمهم وأد البنات، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار، وكان بعضهم يبغي على بعض بسرقة ماله، أو استياق ماشيته، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق وتحريف الصكوك، وتقليد الأختام، والبراعة في النصب والاحتيال، يكاد يستوي في ذلك العالم والجاهل، والشريف الهاشمي، والفلاح القروي.

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها، ولكنا أسأنا الاختيار، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم، وغيرتهم وحميتهم وعزتهم ومنعتهم، فكيف لا يكون الأمر خطيراً، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئني عن الإسلام أين مقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفي أي موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟

أفي الحانات والمواخير التي يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما هم يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله، أو الاحتشام في أمره، سموه جباناً جامداً، أو متكلفاً بارداً، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية، والقضاءين الشرعي والنظامي؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح، والغبن الفاحش، مزخرفاً بالأقوال الكاذبة، والأيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدو وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح

المكتوب فيها (العدل أساس الملك) أو (إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم لكفت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ويحسبونها حسنات، لغفران تلك السيئات؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسماً بلا روح، وعلماً بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الداثرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولاً عجيباً وخلقاً غريباً من الأكاذيب، والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثاً موضوعاً، أو قولاً مصنوعاً، أو خرافة تاريخية، أو بدعة دينية، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر، وهي بعينها الأخلاق والرذائل التي ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها، والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً، وللإسلام صلاحاً، فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية، لا تربية مادية، أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب، والإسلام وإن كان دين العقل والفطرة، والإصلاح، إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون في نظرهم تابعاً للعقل، وأن يكون العقل الحكم بينهم وبينه، والخير كل الخير في أن يكون الدين حاكماً والعقل مفسراً ومبيناً؛ فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة، والحكمة والسياسة، فقد تم لهم كل شيء، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين: الدينية والسياسية، كما تم لهم ذلك في العهد الأول من هذا الباب نفسه، وفي هذه الجادة المستقيمة، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعاته في الجاهلية الأولى، وهل يستطيعون أن يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين، لا تأخذهم فيه هوادة ولا عنه سنة، وأن لا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلاً إلاّ بالإيمان والتقوى، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل

الله، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر، ويحتمل الكريهة، ولا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً، ولا للهوان على نفسه سلطاناً؟

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين؟ «لست أدري ولا المنجم يدري»؟

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

❁ ❁ ❁



في أكواخ الفقراء
«مترجمة»

مضى الليل إلا قليلاً والظلام مخيم على الكون بأجمعه، والكواكب متلفعة بأردية السحب، ما يستشف منها الناظر بصيصاً ولا قبساً، والفضاء بحر خضم مترامي الأرجاء إلا أنه ساكن الصفحة، هادىء النأمة، يقصر فيه قاب العين، وتضل في تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها، والغيوث منهلة متواصلة، تهمي بقوة واحدة، وقوام واحد، ولا تغزر ولا ترق، ولا تضطرب خيوطها، ولا تختلف نغمتها كأنما هي شباك ممتدة بين السماء والأرض، وكوخ السماك «فيليب» جاثم في مجثمه بين الأكواخ المحيطة به، لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل تجاهد ذبالته جهاداً شديداً في تمزيق قطع الظلام المتكاثقة حولها، وغير مجمرة هامدة قد خبت نارها إلا بقايا جمرات شاحبات قد التفت بأكفانها البيضاء، وأخذت طريقها في مدرج الفناء وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شبكات معلقة بالجدار كأنها الأشباح الماثلة، ومنضدة عارية قد نشرت فوقها بضعة آنية نحاسية تلمع لمعاناً ضعيفاً في ذلك الحندس كأنها عيون الجنادب، فإذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشية مبسوطة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين آخذ بعضهم بأعناق بعض، كما تتآخذ الأفراخ في أعشاشها وكما يضم الخوف الضلوع بعضها إلى بعض، وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جاثية على ركبتيها تصلي وتبتهل وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن يرد لها زوجها سالماً، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة.

وإنها لكذلك إذ هبت الزوبعة هبوباً عظيماً، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازاً شديداً، وأن لوقعها الأطفال في لفائفهم. فطار قلبها فزعاً ورعباً، وخيل إليها أن هدير الأمواج، ودمدمة الرعود، وزفيف الرياح، وقعقعة السقوف

والجدران إنما هي نذر السوء تنذرها بمصير زوجها المسكين في أعماق ذلك الأوقيانوس العظيم، فظلت تردد بينها وبين نفسها: رب إني بائسة مسكينة لا سند لي ولا عضد، وأن هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون أن يقوتوا أنفسهم؛ ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتهم في شؤون حياتهم فاحفظ لي ولهم حياة ذلك الرجل المسكين الذي أسلم أمره إليك، وأودع حياته بين يديك، وخرج في طلب الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة فلم يعد حتى الساعة ولا ندري ما فعلت به يد الأقدار.

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصيادين وأولادهم!

إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الأكواخ الموحشة، ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه المائي العظيم الذي لا نهاية لعمقه، ولا حد لاتساعه ولا عاصم من مخاطره، ويحاولون انتزاع أرزاقهم من بين ماضغي تلك الأمواج الثائرة الفاغرة أفواهها كالذئاب الجائعة؛ تحاول التهام كل ما يدنو منها، ولعل القدر الذي نخشاه عليهم في هذه الساعة قد نزل بهم؛ فلم تغن عنهم شيئاً تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التي يسمونها زوارق؛ ولعلهم لبثوا ساعات طوالاً يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم، فداروا بأعينهم حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها إلا بقاياها المتطايرة في مهاب الرياح، فحاولوا أن يسبحوا إليها فأفلتت من أيديهم؛ فنال منهم العياء؛ فهووا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعاماً للأسماك التي كانوا يظنون منذ ساعة أنها ستصبح طعاماً لهم.

هنالك يأتينا نعيهم فنبكي ونندب، ونهرع إلى الشاطىء والهين مدلهين ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رد إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا، وأفلاذ أكبادنا، أو تكشف عن نفسك قليلاً علنا نرى جثثهم في قاعك العميق، فلا نسمع ملبياً ولا مجيباً.

وهنا هدأت الزوبعة قليلاً، وخفتت أصوات الرياح، فسكن بعض ما بها ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها في السماء لترى كم بقي بينها وبين الصباح، وكان الظلام لم يزل حالكاً والمطر لم يزل منهلاً، فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من مقبل يتقدم، أو شبح يتحرك فلم يقع نوره إلا على كوخ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة، فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة «جانت» التي مات زوجها غريقاً منذ بضعة شهور وخلف لها أطفالاً صغاراً تقاسي الآلام الشداد والأهوال

العظام في تدبير عيشهم، وتقويم أودهم، فمر بخاطرها أن تزورها وتتعرف حالها، لأنها كانت تعلم أنها مريضة مدنفة، وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناء عظيماً، وأقرب ما تكون النفوس إذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها، فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتى بلغته، فوقفت على بابه وقرعته مراراً فلم يرد عليها أحد. فدفعته ففتح فدخلت رافعة مصباحها أمامها فأنار لها ما حولها فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها، واستوقف دقات قلبها؛ وأمسك الدم عن جريانه في عروقها.

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوحة، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الأخرق فتبلل كل شيء فيه. ورأت فراشاً قذراً من القش قد رقدت فوقه الأرمة «جانت» رقدة ساكنة جامدة لا حس فيها ولا حركة فدنت منها ولمسته بيدها فإذا هي ميتة، وإذا قطرات من الماء تنحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالي الممزق، فوقفت أمام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت:

هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض، وهذا مصيرهم الذي يصيرون إليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمناً طويلاً، إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم.

ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير أولادي غداً هذا المصير الذي أراه الآن وقد لا تدخل عليّ في تلك الساعة جارة من جاراتي تراني وترثي لحالي كما أرثي لحال هؤلاء المساكين؟

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة؛ ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهاً لوجه، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة كأن شبح الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما، ولا يزعج سكونهما. ورأت رداء أمهما وكانت، تعرفه قبل اليوم، مسبلاً عليهما فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين، والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما، فتشفق عليهما، وترثي لهما، حتى ضاقت بها ساحة الصبر، فخلعت عنها رداءها وهي أحوج ما تكون إليه، وألقته عليهما؛ ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها.

وقفت ماري أمام هذه المناظر المؤلمة، والريح تئن أنين الوالهين المتسلبين والموج يعج عجيج أجراس الموت، وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها، وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ويرسل بعض أشعته في جوانب الكوخ، فأطفأت ماري المصباح الذي بيدها ووضعته جانباً ثم جثت بجانب الميتة وصَّلت لها ما شاء الله أن تفعل، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحملتها برفق وسكون ومشت بهما حتى بلغت كوخها، فأضجعتهما بجانب طفليها، وأسبلت عليهم جميعاً رداء واحداً.

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها: لا أدري أأصبت فيما فعلت أم أخطأت، وإنما أدري أن المرأة التي أودع الله قلبها شعور الأمومة وإحساسها لا تستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما في كوخ عار من كل شيء إلا من جثة أمهما فتتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك.

إن المنظر الذي رأيته ما كان يسمح لي بالتفكير في نتيجة العمل الذي أعمله فإن تبين لي بعد ذلك أنني مخطئة فليس معنى هذا أني كنت أستطيع تجنب الوقوع في هذا الخطأ، لأن قلبي من لحم ودم، لا من فولاذ وصوان.

نعم إن زوجي فقير، وإن طفليّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز، وإن عناءنا في تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا في تربية طفلين ولكن لا يجوز لنا ضناً براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان - على مرأى منا ومسمع - برداً وجوعاً.

ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه، وما أحسبه قاسياً ولا متوحشاً فينكر علي فعلتي هذه، ويأمرني بإلقائهما خارج الباب.

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه فارتعدت، ثم علمت أنها الريح، فأطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب فبكت وضحكت، وغضبت ورضيت، وأملت ويئست، ورحمت وقست، وحمدت فعلتها وندمت عليها، وأحسنت الظن بزوجها، وأساءته به، وظل فؤادها نهباً مقسماً في يد الهموم والأفكار حتى شعرت بسواد يتقدم نحوها، فاستطير قلبها خوفاً ورعباً وانتبهت فإذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها، فنهضت إليه وعانقته، ثم ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضعه كما أنكر ذلك منها حين رآها، وسألته كيف كان حظه

الليلة، وماذا كان شأنه مع العاصفة، فألقى بشباكه وقصبه على الأرض وظل يقول لها: أما الليلة فكانت مزعجة جداً لم أر في حياتي مثلها وأما الصيد فها هي يدي صفر منه كما ترين ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت وما أنا بآسف على شيء ما دمت أراكم بخير وكيف حال الوالدين؟ فارتعشت وقالت: هما بخير، قال: ما لي أراك شاحبة صفراء. وكيف قضيت ليلتك، فأطرقت برأسها وقالت: قضيتها في خياطة قميصين للولدين، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت عليك، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله، ثم نظرت إليه وبين شفتيها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع، ثم استنصرت جلدها وقوتها وقالت: وشيء آخر أحزنني جداً، قال: وما هو؟ قالت: قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليل إن جارتنا «جانت» قد لبت دعوة ربها وإن ولديها الصغيرين قد أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما.

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة، ونهض من مكانه وتمشى قليلاً ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره وظل يعبث بشعر رأسه، فيشده حيناً، ويمسحه أخرى، وهي تتبعه بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه، ثم جلس على المائدة القائمة في وسط الكوخ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج:

رب إني وإن كنت رجلاً جاهلاً فربما لا أستطيع أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما، إلا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لا أنكرها، ولا بد أن الذين يعلمون أكثر مما أعلم، يفهمون من شؤونك وتصرفاتك فوق ما أفهم!

نعم إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات وربما مر علي وعلى أولادي أيام لم نجد فيها ما نأتدم به، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هاتين اليتيمتين الصغيرتين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب؟

ثم التفت إلى زوجته وقال لها: إنني متألم جداً يا ماري، ويخيل إلي أن روح تلك المرأة المسكينة واقفة الآن أمام هذا الباب تقرعه وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا، ونكفلهما من بعدها، ولكن كيف العمل يا إلهي؟ فقالت: إني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يا فيليب. وإن ألمي عظيم كألمك، فصمت هنيهة ثم انتفض انتفاضة شديدة ودنا منها وقال لها: ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين يا ماري؟ قالت: بلى، قال: ما نصنع لو أنهما بقيا حيين حتى اليوم؟

قالت: لا شيء سوى أننا نفزع إلى الله في أمرهما، قال: فلنفزع إلى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين، وكأن ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما.

اذهبي إليهما يا ماري واحضريهما، فربما استيقظا بعد هنيهة من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفاً ورعباً.

إذهبي إليهما واحمليهما برفق وهدوء دون أن توقظيهما واضجعيهما على فراش ولدينا فسيكون منظرهم جميعاً جميلاً جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم في وجوه بعض وحرام عليّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التي أصبحت سيدها وعائلها، اذهبي يا ماري وثقي إن الله سيملأ علينا بيتنا خبزاً وفحماً ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين.

فتهلل وجهها بشراً وسروراً، ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال فرفعت عنهم الغطاء، ونظرت إلى زوجها صامتة لا تقول شيئاً، فما وقع نظر «فيليب» على هذا المنظر الغريب حتى أستطير فرحاً وسروراً وهرع إلى زوجته واحتضنها إلى صدره وقال لها: ما أشرف قلبك يا ماري!.

يا سكان القصور: ليتكم من سكان الأكواخ، لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين.

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي؟

هو شعور المرء أنه مسؤول أمام ضميره عما يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمي الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه.

التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة، لا فاضلون، لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس، أو خوفاً منهم، أو طمعاً فيهم، فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في الجنة التي أعدها الله للمحسنين، أو خوفاً من النار التي أعدها الله للمسيئين.

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجوداً، أو لا نعرف له مكاناً.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار، لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب أنه يمشي في طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون، لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس، لأن الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضر بهم، رذائل كان أم فضائل، وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى عنها، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صور ورسوم وأكاذيب وألاعيب، فرأينا الحاكم الذي يقف بين

يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد أن يسلبه إياها، والأمير الذي يتقرب إلى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله ألف بيت من بيوت المسلمين، والفقيه الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته إلى خاتمته، والغني الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريح من أضرحة الأولياء، ووضع في صندوق النذور بدرة من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها والمومس التي تتصدق بنفسها ليلة في كل عام على روح بعض الأولياء وعندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام.

إلى كثير من أمثال هذه النقائص التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الأخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة.

الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً، أو أساء إلى ضعيف مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحي خجلاً من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة.

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيدي إلى العبث بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو ممالأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحيي ضمائرهم، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أي طريق أراد، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب، والأريج عن الزهر.

❀ ❀ ❀

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجاراة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها.

أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان وتوأمان متلاصقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها. فكيف أتمناها لأمة هي أعز عليّ من نفسي التي بين جنبيَّ؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب، فقلت قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقل، ففروا من وجهها إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في أعماق القبور، وما أكثر الجبناء في مواقف الحرب وميادين الجهاد!

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تمتل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من أن العرض إناء إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف.

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات، شوقاً إلى لثمة من خد يرشح صديده، أو رشفة من ثغر يتناثر دوده حتى إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام. فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم، رأوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالاً لما فاتهم الإلمام بهم حقيقة، فأنشأوا لأنفسهم في باطن الأرض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالأستار السوداء، ووضعوا في وسطها صندوقاً من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار

لونها، وإسبال جفونها، وسكون أنفاسها، فإذا لج بأحدهم الشوق إلى الإلمام بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً مظلماً موحشاً، يضم بين أقطاره فتاة ميتة لا حراك بها، فيلم بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال.

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا، فقلت لا عجب في ذلك. وهل هو إلا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلاً!؟

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإني لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأساً ولا يجدون فيه متلوماً.

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي:

يوم الأحد: دروس استعدادية.

يوم الإثنين: الغزل.

يوم الثلاثاء: المطارحة.

يوم الأربعاء: صناعة التقبيل والتخميش.

يوم الخميس: فلسفة الدلال والتصبي.

يوم الجمعة: اختيار مواعيد اللقاء.

يوم السبت: الامتحان.

هذه هي المدرسة الغرامية، وهذا نظامها، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها أنها زهرة المدنية الحديثة، وتاجها المرصع.

لماذا نسمي الزنوج قبائل متوحشة، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى مخالطة النساء، فيأخذونهم جميعاً إلى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة

مرتفعة ينثرون حولها تراباً معبداً، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه، كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى حيطة وحذراً ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدينة، وها هي ذي تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا يتكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها!!

إذا كان توحش الأولين لإغراقهم في صون الأعراض، والحيطة لها فالآخرون أكثر منهم توحشاً لإغراقهم في هتكها وابتذالها، والإغراق في الخير، خير من الإغراق في الشر.

فيا أيها الزنجي المسكين، لقد ظلمك من سماك متوحشاً، ويأيها الأمريكي المتوحش لقد كذبك من سماك متمديناً.

أيها الزنجي الأسود: إن كنت أسود اللون، فالفضيلة أعلى قدراً من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه، وجريمة لا تغتفرها! وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنناً لا أحسبك تحن إليه، أو تتقطع نفسك حسرات عليه؟ وإن كنت عارياً فربما لبست من الفضيلة ثوباً يحسدك عليه ـ لو يعقل ـ ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجه ودمقسه وحريره:

ولو بتما عند قدريكما لبت وأعلا كما الأسفل[1]

(١) أي لو تنزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى مكان الأسفل، والأسفل مكان الأعلى.



أمس واليوم

مثلنا ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده كمثل رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح، فانقلب جوهراً بعد إذ هو عرض، فأصبح كأنما هو فحل سائل، أو مداد جامد، فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد، وتخفضه الوهاد لا يرى علماً فيهتدي به، ولا يتنور نجماً فيعتمد في سراه عليه.

وإنه لكذلك وقد استوت في نظره الجهات الست، فسمائه أرض، وأرضه سماء، ووراءه إمام، وأمامه وراء، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق، وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشعته المتلألئة فعشى بعد أن كان بصيراً فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً، وما زال في ضلاله القديم، إلا أن ذاك ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلاليين، واقتل الداءين، فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء، فأما وقد أصبح ادواء داء فلا أمل في الشفاء.

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة التي همي سيلها على هذا العالم الإنساني فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ورأى الشرق تربة طيبة صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الأعشاب الضعيفة، والجذور الفاسدة، فأما ما تحجر منها، فلم تغن عنه السقيا شيئاً، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسداً كأصله وكان خيراً له لو ذهبت ذلك الفيضان به وبجذوره.

أي أن المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين فصعدت بهم إلى سمائها

خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا، وهوينا إلى أعمق مما كنا، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو، فإذا ارتد ارتد إلى حفرة يدفن نفسه فيها.

أي أن الغربيين أحسوا، فنهضوا، فجدّوا، فأثروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات. ووثبنا إلى الغاية وثباً فسقطنا.

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً وأهنأ عيشاً، وأسدّ خطوات في سبل الحياة؛ وكانت المعيشة فيهم اجتماعية؛ أكثر منها فردية؛ فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالمملكة الدستورية المنتظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخلاق والعادات؛ تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة، وتتلاقى في قائمة الصلاة كما تتلاقى في ساعة المتنزه، يحبون الله، لا يختلفون إلا في الطريق إلى رضاه؛ ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية، ويفرون من العادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من الأسد؛ مخالفة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتجمد نفوسهم، فإذا هم ميتون ثم لا يبعثون.

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب، حتى إذا أصبح الصغير كبيراً وجد من صغيره ما وجد منه كبيره، فلا تزال سلسلة التوارث في الأسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث، وتكبوا دونه عاديات الليالي.

ويرحم الصغير الكبير فلا يألوه نصحاً في حاضره ومستقبله، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئاً.

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أثكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالية، وزخارفها اللامعة الباطلة، فانقلبت المعيشة البيتية اجتماعية فردية محضة فالإخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقي بأبيه، والأب شقي بولده، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب، لا

ترى فيها غير وجوه مقطبة، ونفوس منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء إثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء.

ومن كان في شك من هذه الحقائق فإني أكله إلى جداول القضايا في المحاكم فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها ـ خصوصاً المدنية منها ـ واقعة بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشرت آباءه أجيال متعددة؛ فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة أولاد و «امرأة جديدة» متعلمة تعرف كل شيء إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها، وليتها جهلت كل شيء إلا هذا فتكون قد علمت كل شيء، وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسدة حباً ملك عليها مشاعرها وخوالجها فربما عرض لها المهم من الأمر فلا تخف له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه، وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشاهدته، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على صواحبها وأترابها، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى (روميو) فتكون له (جوليت)[1] وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور، فيومها نصفان: نصف للخروج، ونصف للتهيؤ له، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس إلى مغربها، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الأولى فلم يغتبط بها غير عام واحد، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها.

أما أولاده فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة. الإنكليزية والفرنسية والألمانية، ثم تخرجوا، هذا إنكليزي بفظاظته وخشونته، وهذا فرنسي بخلاعته واستهتاره، وذاك ألماني بخيلائه وكبريائه، وجميعهم متفرنجون مشرباً ومذهباً ومطعماً وملبساً ومسكناً، وما فيهم من تفرنج همة وعملاً.

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أما الدين فلأن أكثر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها والدين خلق شأنه كبقية الأخلاق، لا يرسخ في النفس إلا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه، فإن بعد عهدها به أغفلته وأنكرته، وكذلك كان شأن هؤلاء الأولاد المساكين فقست

(١) روميو وجوليت: اسم رواية لشكسبير.

قلوبهم؛ وجمدت نفوسهم، وفقدوا بفقد دينهم أطيب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب، الحافلة بالكوارث والهموم.

والإنسان مهما طال حوله، وكثر طوله، واتسعت مذاهب قوته، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد، لولا زهرة الأمل التي يتعهدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن، فيستروح منها ما يروح عن قلبه، ويسري عن نفسه، ولولا يقينه أن هناك حولاً أكبر من حوله، وطولاً أعظم من طوله، وإلهاً قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وعيت عنه قوته.

وأما الوطن، فلان المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيد أجنبية تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم.

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمع من مجامع السفراء تركي متمسك بتركيته، وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزية سيدة البحار، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكها، وفرنسي يعبد فرنسا ويسبح بحمدها، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة، وإن أسعد المستعمرات مستعمراتها، وألماني يستظهر خطب الإمبراطور، ويتكهن أن المستقبل لألمانيا يوم يمحى اسم إنكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاع الطويل في شأن الإلزاس واللورين، وبين المتألمن والمتكلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلوا، وأي القائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتون؟ ولا يتفقون إلا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبسونها ورجالها قديماً وحديثاً أثواب المراقع المضحكة، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من ناحية والدهم الجالس ناحية يندبهم، ويندب نفسه معهم، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون.

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيما تفرق وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام، فلا يصطحبون في متنزه ولا يجتمعون لصلاة، ولا يتصافون في سمر، ولا يتفقون في شأن من شؤونهم البيتية، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه.

فأنى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة،

وأنى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته، وتشقى بشقائه؟

وأي شأن لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم، وهل أفادوا[1] بها إلا هذراً في المنطق، وثرثرة في اللسان، وشغلاً للأذهان، لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلاً؟

ولو عقلوا أن ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلاً وهمجية، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به، وننعي عليهم تاريخهم من أجله، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا.

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وإن مصر في شمال إفريقيا وسوريا في غرب آسيا، ولكنهم كانوا يعلمون أن وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم، وإن أبناء وطنهم إخوة لهم يسعدون معاً ويشقون معاً وإن سعادتهم في استقلالهم، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية إليهم، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والأوهام، وإن هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد، ويطاطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحنثاً وتعبداً، وعندي أن ديناً خرافياً خير من لا دين، لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشر فيها، ويطهرها من كثير من الرذائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية، كالخيانة والكذب، والحقد والحسد، وسفك الدماء، واغتيال الأموال، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التي لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجراً، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الأخلاق.

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم، ووفاء قلوبهم، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك، ولا شهادة شاهد، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه، أو أنكر شهوده وكثيراً ما يفعلون.

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم، ولكن لم يجن عليهم

(١) أفادوا كاستفادوا.

جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا، وكانوا محرومين أكثر مما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة، ومراكب فارهة، وملابس زاهية، وفرش وثيرة، وآنية صقيلة، وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة، فنحن وهم سواء في الرضا بحالتينا، إلاَّ أن معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء وها هي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم إلى حاجيات، فبنوا القصور، وشادوا الدور، وما شادوا لو يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم، فإن هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا أن لا يبقوا في قوس الحرية منزعاً فأطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكؤوس وضرب الدفوف؛ ثم ينامون النهار بين التمطي والثوباء، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم، فأبعدتهم عنها، فأصبحوا كلاًّ على أبيهم وعلى الناس، لم ينفعهم علمهم، ولم تغن عنهم شهادتهم، بعد أن نفخت الكبرياء في صدورهم فأبوا أن ينزلوا للاحتراف بما يقوم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم في طريق تقليدهم، وباعوا في سوق التشبه بهم كل ما تملك إيمانهم وقلوبهم، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم فما وجدوا في أنفسهم متسعاً لسواها، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تارات، وكانوا قد قلصوا ظلالها أولاً بنفقات دراستهم، وثانياً باتباع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوروبية، التي تفني خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول إلى إشباع بطون تجارها، فنضب معينها ولم يبق منها حتى الذماء[1] فتبدل ذلك النعيم شقاء، وتلك السعادة والرفاهية فقراً وعدماً، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف، والمخترعات والمستحدثات، وأما الأولاد فاغتالت أحدهم يد الزهري وكانت لأمثاله من المغتالين واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جناية دفعه إليها العوز والحاجة، وفرت «المرأة الجديدة» إلى معرض الأعراض

(١) الذماء بقية النفس.

حيث يبتاعها الشقاء بثمن بخس وهو فيها من الزاهدين:

كأن لم يكن بين المجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله، فلو أن باكياً بكى على ما آلت إليه حالة هذه الأسرة الشقية فهو إنما يبكي أسراً متعددة، وأمة كاملة:

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافق
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك[1]

وجملة القول إن للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي، فلا خير في العصرين، ولكن ويلا أخف من ويلين، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرين، ولئن دام هذا الحال، واطرد المقياس، فالغد شر من اليوم، كما كان اليوم شراً من الأمس.

---

(١) الأبيات لمتمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً.



المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال: ذهبت ذات ليلة إلى مرقص من مراقص الأزبكية ولم أكن زرته ولا زرت غيره من قبل، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشيئة هادئة مطمئنة، فذعرت لمرآه، وتراجعت قليلاً قليلاً، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق إلى المرقص، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب، والذل والانكسار، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين.

وقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامس فالتفت ورائي فإذا صديق من أصدقائي يسألني: ما وقوفك ههنا؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره: أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب، قال: أنا أفتش عن ابن عمي، قلت: وأنا أفتش عنك، فابتسم وقال: هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث ما لا نهاية له، وأمسك بيدي حتى جار بي باب المرقص، فسألته ما هذا الجندي الواقف أمام الباب؟ قال: كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية لا أدبية، فتساوت في نظرها «المصالح» والمراقص، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء، ومعاهد البغاء، فأصبح الجندي يحمي أبواب العاهرات كما يحمي أبواب الوزارات، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات.

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخاً وتذرافاً كلما أبصرت هذا الجندي الظريف واقفاً هذا الموقف الذليل، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء، ويحمي الفسق والفجور، لا القلاع والثغور، وما أعجب لشي عجبي لهذه الحكومة التي تضن بجنديها أن يشتمه شاتم، أو يلمسه لامس؛ فتغضب له غضبة مضرية فتراءى فيها الشهامة والحمية، والعزة والنخوة ثم لا تضن به أن توجره نائحة في الجنائز، أو قواداً في المراقص، وهو هو بعينه

الذي يمثلها في وقفاته، وينوب عنها في غدواته وروحاته.

هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي إلى قاعة المرقص حتى وصلت إليها، فماذا رأيت؟

إن كنت لم تسمع في حياتك أن فداناً واحداً من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه؛ أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون.

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس، والعقول جامدة في الرؤوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلاً، وأذكاهم قلباً، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالاً وإكباراً، واقعاً في حبالة بغي تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها؛ وهو في غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخاراً، وكسرى فارس أنفة واستكباراً.

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلاً يخترق أشعة حجب الغيب، وعلماً تتساوى أمامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر:

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن حرف واحدة لكي أزدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية التي يشترك في فهمها الأذكياء والأغبياء والعلماء والجهلاء.

رأيته يجلس في المرقص فتمر به البغي فما هي إلا لمحة طرف، أو غمزة كف. حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها، وملأ فراغ قلبها، فيدعوها إليه فتجلس بجانبه، فما هي إلا ابتسامة خالية، أو كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الإيمان، أن نفسه صادقة فيما حدثته، وأن الفتاة قد علقت به علوقاً لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه، وابتسامات تجود بها عليه.

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل فها هي المرآة بجانبك فهل ترى فيها منظراً رائعاً، أو جمالاً ساطعاً، يأسر أقسى النساء قلباً، وأعصاهن عناناً.

إن الفتاة التي أسمعتك كلمة الحب قد أسمعتها قبلك وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك، وعقل مثل عقلك.

وإن كنت في شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها، وموقعك من قلبها، فإن لم تمطر عليك سحائب اللعنات، وتجعلك غرضاً لسهام التهكمات، فأنت أصدق الصادقين، وأنا أكذب الكاذبين.

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً يكبر المنظورات، ويضاعف المسموعات، تغني المغنية بصوت مضطرب النغمات، بارد الترجيعات، ثقيل الحركات والسكنات، فتمتلىء أرجاء القاعة بالآهات، وتدوي فيها الصيحات المزعجات، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجه مغضن وجفن مقرح، وسن بارز، وخد غائر، فتطير حولها القلوب، وتتحلب لها الأفواه، وتترامى تحت أقدامها الوجوه، فقلت في نفسي. أهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة، وتذبل فيه الرياض الزاهرة؟

أهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار، تدفق الأنهار في البحار، وتقبر فيه نفوس الكرام، قبل أن تقبر تحت الرجام، والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله وأسأطيله وقنابله، ولا الأرض بزلازلها وبراكينها، ما يبلغ منا المرقص ببغاياه.

قال المحدث. والحق أقول إني دخلت المرقص وأنا أحسب أني أنفس عن نفسي كربة، فرأيت ما زاد نفسي هما، وملأ قلبي غيظاً، فقلت لصاحبي. هل لك في القيام؟ فقام وقمت وأنا أقول. والله ما أدري ما ترك هذا المكان، للمارستان؟



الماضي والحاضر

عندي أن الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أن الجمال في أمة قد يكون قبحاً في أمة أخرى كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصر آخر.

ليست الفضائل والرذائل أسماء توفيقية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم إلى اليوم أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان، يكتبون على رأس أحدهما عنوان «الفضائل» وتحته كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة، وعلى رأس ثانيهما عنوان «الرذائل» وتحته كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة، وأرى أنه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالأمس، وأن أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وأن كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون منها قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري، وأسساً ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونه، فلا بدّ للناس منها، ولا غنى لهم عنها، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلماً نظامياً، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون له يده

التي أسداها إليهم، فإذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحسن إليهم أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه ـ من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه، أو يرفه عليه، أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه، فليس الكرم فضيلة، وليس من الرأي الدعاء له، والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد، أما اليوم وقد ذلت النفوس، وسفلت المروءات، فلبس ثوب الفقر غير الفقير، وانتحل البؤس غير البؤس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشف البالي، فالرحمة هي الفقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد، أما اليوم وقد فترت همم الناس، ووهت عزائمهم، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير، ووكل كل أمره إلى صاحبه، فإن رأوه قائماً بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضي فيها، ووقفوا عن كثب ينظرون ماذا يفعل فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها، وإن فشل خذلوه، وتنكروا له، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرة للشريف إذا عقدت يده، وعزفت نفسه. والغنى معرة للدنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه، أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم إلا المجد المالي، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم، فالقناعة ذل الحياة وعارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها ويطأطئون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها، أما وقد أصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك الذي لا يحسن الذياد عن

نفسه، فلا خير في الحلم، والخير كل الخير في الغضب.

الحياة معترك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاهما فليس لذلك إلا معنى واحد: هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم، في سبيل أدنيائهم وأنذالهم.

إن الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص، في هذا العصر، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثروا بها من دونهم، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه.

كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبتسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفظع الطمع والجشع، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين في الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب، وأن قصص الفضائل التي يقرءونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف له وجهه؛ ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات.

وليت الذين يعرفون من شؤون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناشىء كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر، ويغش الصانع؛ ويلفق المحامي، ويدجل الطبيب؛ ويختلس المرابي، ويرائي

الفقيه، ويصانع السياسي، ويتقلب الصحافي، ثم يقولون له: هذه هي الحياة، وهذا هو ما يجري فيها، فإن أردتها على علاتها فذاك، أو لا، فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه، وكل مما تأكل حشرات الأرض، واشرب مما تشرب منه، حتى يوافيك أجلك.

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم. وحامل السيف لا يغمده في غمده إلا أمام حامل سيف مثله، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في ووجهه سداً يعترض طريقه، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبياً، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد، يتقلدون سلاحاً واحداً، من نوع واحد.

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش، في عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هذا الناس، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل.

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجل العيش في ظلالها، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها، وواأسفاً على أيامها وعهودها.



الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتياتها لابنه، ثم اتفق أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه، فلم ير أهلها مانعاً من أن يزوجوها منه على تقدم سنه، وإدبار أمره لأنه أكثر من ابنه مالاً، وأوسع جاهاً وسلطاناً، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها، لأنه كان يحب الفتاة حباً جماً، وأصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم، وأصبح الشيخ حزيناً بائساً لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد.

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً. ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت، وتستنتج منهما ما استنتجت:

فجعت سيدة اسمها «مرغريت بونفيل» بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها. وكانت امرأة بارعة الجمال، رائعة الحسن، لا يرها الرائي حتى يخيل إليه أنها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء، وأنها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً وبدأت تختلف إلى بعض الأندية العامة علها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه. فأحبته وافتتنت به وأضمرت في نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه، وإن كان أصغر منها سناً بنحو عشر سنين. فلم تزال تتودد إليه، وتستدني قلبه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها، وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يردد على لسانها كثيراً ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفي، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، حتى زارها في منزلها يوماً من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب

التي يحبها الأطفال ويطربون لها، فلما وقع نظر مرغريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت: ما هذا الذي تحمل؟ قال: إنها هدية لماري أريد أن أقدمها إليها وأين هي؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك.

فذهب حيث أشارت، فراعه أنه لم يجد أمامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن، بل فتاة كاعباً رائعة الجمال في السادسة عشرة فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول، حتى رنت من ورائه ضحكة مرغريت، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فارفض جبينه عرقاً، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها: أقدم لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصاناً خشبياً جميلاً، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة، فأثر في نفسها خجل جورج وارتباكه فمشت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له: أشكر لك هديتك يا سيدي، وأتقبلها منك باغتباط وسرور، وأعدك أني سأحفظها لك عندي تذكاراً دائماً لا أنساه، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعاً يتحدثون ويسمرون، ومر لهم أطيب يوم مر لأحد حتى أظلهم الليل فاستأذن جورج وعاد إلى منزله.

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرغريت لا من أجل الأم وحدها، بل من أجل الأم والبنت، حتى حضر صباح أحد الأيام، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها، فوجد ماري وحدها، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبله، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية فوجدها، وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيه أول ما رآها، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلاً ذهبا فيه مذاهب مختلفة، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب، فورداه، فإذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب، وإنهما لمضطجعان وجهاً لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعة يتمنى المصور أن يراها فيرسمها فيرسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعاً فلا يجدونها، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران فرابها منظرهما، وخيل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها، فأصغت إليهما، فألمت بطرف من حديثهما، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها غبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شيء

فأملست من مكانها إملاساً ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرآة أمامها، وإذا شعرات بيض سانحات في رأسها تهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك، فأخلي مكانك لابنتك، فهي أولى به منك، وحسبك من السعادة أن تفرحي لفرحها، وتهنئي لهنائها، واعلمي أن للطبيعة حكماً قاسياً لا يختلف عليه مختلف، ولا يتمرد عليه متمرد إلا هلك، ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكاً وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة، فتثور ثائرتها، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها، ونحو ابنتها أخرى، فتلين عريكتها، ويسلس قيادها، وتقول في نفسها: إنها أولى به مني، لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر، فخرجت من غرفتها باسمة متطلقة حتى وصلت إلى مكانهما، فرأتهما مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيء مما حولهما، فصاحت بهما: أأنتما هنا يا ولديّ؟ فاضطربا إذ رأياها، فابتسمت لهما ووضعت يدها في أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها، وجلست تتحدث إليهما حديثاً طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما، وما هي إلا أشهر قلائل حتى زفت إليه، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهداه أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها.

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم في أعماق قلب مرغريت لم تزل تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى رن في أذنها يوماً من الأيام صوت حفيدتها تدعوها «جدتي» فكان هذا آخر عهدها بها.

وكذلك استطاعت مرغريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظلِ سعادة ابنتها وهنائها.

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره، وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيثة، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصف لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب فجوزي هو على تمرده على الطبيعة، وخروجه عن سنتها شر الجزاء، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها، وتأدبها بأدب الحياة، أحسن الجزاء.



عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يوماً من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر، إلى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سداً محكماً لا تنال منه المعاول، ولا تعصف به العواصف، ثم أَلقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي، زيه وهيأته، ولغته ولهجته، ومناخه ومسكنه، وعاداته وأخلاقه، وأصحابه وعشراءه؛ وجميع صلاته وعلائقه، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له: صورته واسمه لفعل.

يريد أنه قد أصبح إنساناً غير ذلك الإنسان الأول، لا صلة له به؛ ولا شأن له معه، وأنه قد خلق خلقاً جديداً.

إنها لخلة رديئة جداً ما رأيت في الخلال أقبح منها.

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب «وعار»، والفقر ليس بعيب ولا عار، فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضاً، لأنه قضى عصر شبابه، والشبابُ هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها، في الفقر والخصاصة، والعَدم والإقلال.

ولا أدري ماذا يكون شأنه غداً إذا استرد الدهر هبته منه، وكثيراً ما يسترد الدهر هباته وعطاياه، بل لا يكاد يهب هبة، أو يمنح منحة حتى يستردها.

عذرته في ثوبه الذي خلعه، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها، وفي داره التي هجرها، وقلت لا بد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق، وفي لهجته التي غيرها؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم، وفي خده الذي صعَّره، وصدره الذي أبرزه، وأنفه الذي شمخ به، لأن الثروة طغياناً كطغيان الشراب، لا سبيل إلى دفعه والخلاص منه، ولكنني لا أستطيع بحال من

الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها.

إنها رفيقة حياته، وعشيرة صباه، وشريكته في سرَّائه وضرَّائه، ويسره وعسره وشبعه وجوعه وريه وظمئه، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسراً، وضيقه سعة، وشدته رخاء، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته.

إنها شاركته في شدته، فيجب أن تشاركه في رخائه، واحتملته والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه، وأقرضته الصبر على عشرته، فيجب أن يوفيها الصبر على عشرتها، إن كان يرى أنها عبء ثقيل عليه.

أيريد أن يتمنى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنهن يتمنين ذلك فعلاً، بل يسعين له سعيهن؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى، فيا للفظاعة والهول، ويا للمعيشة النكدة المريرة! ويا للشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء!

حدثني من أثق به أنه دعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم: إنها سيدة هذا البيت بالأمس، وأن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله، فكفاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء، بل تركها في قريتها وحيدة منقطعة، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة، وولد جديد؛ وقالت إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم.

إنه لموقف مؤلم جداً أن تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين.

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ، ولا لذة السعادة إلا إذا تمثل أمام عينيه عهد الشقاء، فما أحوجه ـ إذا

انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى - إلى أصدقاء عهده الأول وعشرائه، ليجلس إليهم من حين إلى حين، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره، فيشعر بلذة الانتقال من حال إلى حال، وما أحوجه إلى زوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيماً.

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلاً أعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها «بوشنج» وفد إلى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم، وقف الناس له صفوفاً على جانبي الطريق، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو مطرق واجم، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه: ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال: نعم أراهن ولكنني كنت أفضل أن أرى بدلاً منهن عجائز «بوشنج».

أي أنه كان يتمنى أن العيون التي رأته بالأمس وهو وضيع، تراه اليوم وهو رفيع.



الأجواء

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسالت لها دموع الفضيلة حزناً وأسى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتاً عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول في نفسي: ليت شعري لم يرضين لأنفسهم هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الأرض حيث شئن، يطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق، والأجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة، وما على وجه الأرض جو أسوأ من جوهن الذي يعشن فيه فيخفن أن يصرن إليه، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقاً من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها أو إنه وضع في أعناقهن أغلالاً من الديون وليس في وسعهن أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فإن من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت.



توفيت زوج إحدى الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزناً شديداً لأنها كانت أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئمها، فمر بخاطره يوماً من الأيام أن يزور حي «مونمارتر» وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية

وفضلاتها، فظل سائراً بمركبته يستطرق من زقاق إلى زقاق ومن معبر إلى معبر حتى وقف بباب خان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه، فانحدر إليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين، ولابط بالأرض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه، وراقص يوقع حركات قدميه على نغمة شبابة ينفخ فيها آخر، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحباً متكاثفة يرى الرائي من خلالها بعد لأي ما مائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب إلا قليلاً، وتنثر على الناس نثارات من الورق الرقيق الملون، والناس من حولها طائرون بها فرحاً، يداورونها، ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد أحداً، وربما مد بعضهم إليها يده فجذبها من ثوبها جذباً شديداً حتى يكاد يزلقها من مكانها، أو دفعها في صدرها بعصاه فآلمها، وهي تبتسم مرة، وتقطب أخرى، فلم يدر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية، ولكنه رأى على كل حال منظراً غريباً لم ير مثله قط فأعجبه وسكن إليه، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ في الحال مكاناً قصياً، وجلس إلى مائدة منفردة، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فإذا هي رائعة الجمال، إلا أنه جمال مبعثر مذال، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة فلا يزال ناظراً إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها، ونزلت تدور بعينيها علها تجد من يدعوها إلى لقمة تسد جوعتها أو كأس تبل بها غلتها، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاستطيرت فرحاً وسروراً لأنها لم تر قبل اليوم زائراً مثله في فخامة هيئته، وجلال منظره، وأخذ يتحدث إليها ويسائلها عن نفسها، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد امرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء، وقد سمع في صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع في نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحساناً عظيماً، فسألها: ألها بأحد من الناس صلة من زواج أو مخالة؟ فأطرقت برأسها وأجابت: أن لا، فعرض عليها رأيه الذي رآه لها، فاستطارت به فرحاً وسروراً، وما هي إلا ساعة أو بعض

ساعات حتى كانت بجانبه في مركبته فسار به إلى منزله.

وهناك تغير من شأنها كل شيء، فأصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية، والقبعة القذرة والحذاء المرقع سيدة فخمة يتلألأ وجهها بنور العزة والكرامة، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن في الحياة، وأن الدوق يوشك أن يتزوج منها.

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر إلا خدمه، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من حين إلى حين لأنه كان منقطعاً لا زوج له ولا ولد، ولا قريب ولا نسيب فكانت «مارسيل» ملهاته التي يتلهى بها في وحدته، وأنسه الذي يأنس به في وحشته وكانت هي سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه لا ينازعها في ذلك منازع، وظل الأمر بينهما على ذلك شهوراً عدة وكان يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما إلى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم يعودان، فإنهما لعائدين ليلة من الليالي من منتزههما إذا مرت بهما المركبة على مقربة من حي «مونمارتر» فاقترحت عليه «مارسيل» أن يمرا بذلك الحي ليلهوا بمناظره الغريبة، ومشاهده العجيبة فأذعن لرغبتها، وظلا يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه فطلبت إليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها، فلم ير في ذلك بأساً، ودخل معها، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها، واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسا إليها، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجاً عظيماً، وهتفوا لها هتافاً شديداً، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها وهي تبتسم لهم، وتعطف عليهم، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها، وأصعدوها إلى المائدة لترقص لهم، فكأنما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم، فرقصت وافتنت في رقصها ما شاءت، حتى أتمت دورها، ثم نزلت وودعتهم وداعاً لطيفاً وانصرفت هي والدوق.

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق، حتى أصبح يخيل إليها أن هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن، وأن هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجّانها، وأن هذا السكون الذي يحيط بها إنما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور، فكانت إذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء

خيالها منظر الحان ومنظر زائريه، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الأشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها، ويشدون يدها، ويصبون عليها فضلات كؤوسهم، فتطرب لتلك الحياة الهائجة الثائرة، وتحن إليها حنين العاشق المفارق، ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة إلى عيشتها الأولى، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادىء قد هجع كل من فيه فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بها، وكانت لا تزال ملقاة في بعض الغرف، وتسللت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها، وأخذت سبيلها إلى حي مونمارتر.

وهكذا قضى عليها أن تشقى، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها.

ولقد كان أسف الرجل عظيماً جداً حينما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها خصوصاً عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفسها، فبكاها كثيراً وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل.

ومر على ذلك عام أو بعض عام وبينما هو مقبل على قصره في ليلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع، فدنا منها ليتبينها فإذا هي مارسيل، أو هي شبح متهافت باق منها، فلما أحست به مدت ذراعيها إليه وقالت له بصوت خافت ضعيف: اغفر لي ذنبي يا مولاي، فدهش لمنظرها دهشة شديدة، ورق لحالتها فأمر الخدم بحملها إلى القصر فحملوها إلى غرفتها التي كانت تنام فيها، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد، وتستذرف الدموع، ثم جلس إليها يسائلها عن شأنها. فقالت إنها مريضة مدنفة منذ شهور عدة، وأنها قد عجزت عن أن تجد سبيلاً إلى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقاً، فلم تجد بداً من أن تأتي إليه لتستغفره من ذنبها، وتسأله أن يعينها على أمرها، لأنها لا تعرف في الدنيا لها راحماً سواه، فسألها لم فرت من قصره؟ وما الذي كانت تنقمه منه؟ فقالت لا أعلم، وإنما هو قدر قدره الله ولا حيلة لأمري فيما قدره وقضاه، فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها؟ قالت في المكان الذي أنقذتني منه فأبيت لشقوتي وبلائي إلا أن أعود إليه لتنفذ في إرادة الله، فرثي لحالها، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرها، فلم

يستطع الطبيب أن يصنع شيئاً، لأنه جاء بعد الأوان، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها إلى خالقها، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته، فلم ينتفع بحياته طويلاً بعد ذلك.



لكل جو من الأجواء رائحة خاصة به يألفها أصحابه ويستنيمون إليها، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة، ولا تقولوا إنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها.



الرسائل

كتاب في التقاضي:

أنا إن سألتك حاجتي، أعزك الله، وبسطت إليك يد رجائي، فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت إلى منكم أياد تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت، أيدك الله، بين أن أستشفع إليك بذوي الجاه عندك، والزلفى لديك وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير، وسجايا البر، فرأيته أن الثانية بك أحرى، وبفضلك أجدر، والسلام.

كتاب مقاطعة:

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك، وصحوت من رقدة طال على الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت، فلم ترعني روائعك[١] ولا أجدى عندي اعتذارك، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة[٢] وقلبي هيبة، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري، فجفت الدموع التي طالما أذلتها[٣] بين يديك وقرت العين التي كنت أساهر بها الكواكب شوقاً إليك، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب، ثم يغذوها بمائه

---

(١) أي لم تعجبني محاسنك.

(٢) الروعة: المسحة من الجمال.

(٣) أذلتها: هتنها.

وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها، وترف[1] ظلالها وترن أطيارها، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ولقد عالجت هذا القلب الشموس[2] في الرجوع إلى سالف عهدك، وسابق ودك، فجمح جموح المهر الأرن[3] وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في أوبته وله العتبى فيما فعل، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأسأت عشرته وخفرت ذمته، وأرغمت معطسه، وركبت به في سبلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل فما هو إلا أن أمكنته العزة فانطلق انطلاق السجين من سجنه، والطائر من قفصه، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ويبلي الجديدان.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

كتاب تهكم:

علمت أن ساسانيا[4] طرق بابك بالأمس، وما زال يكيد لك ويماحلك، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك، حتى خدعك عن نفسك، واقتطف زهرة من روضه، وراح يفتر عن ثغر باسم، ورحت تقرع سن نادم، فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقته، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته، ومتى أقامك آدم وصياً على أولاده من بعده، تكسو عاريهم، وتشبع جائعهم، على أن الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء فكيف تسعهم خزائنك، وهل بين الدرهم الذي أعطيت، والدراهم الذي أبقيت، إلا حرف واحد[5]؟ فليت شعري من أين ذهبت، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك، وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة، فإن كانت هي فالخطب عظيم، والبلاء جسيم، فإنك حيثما ذهبت وأنى حللت، لا تقع عينك إلا على يد شلاء، ورجل بتراء، وعين عمياء وصورة شوهاء، وثوب مخرق، وشلو ممزق، وطريح على التراب سقيم، وجسم أعرى من أديم، فإن لم

---

(١) رف النبات: اهتز واضطرب.
(٢) شمس: امتنع وأبى.
(٣) المهر الأرن: النشيط.
(٤) النسبة إلى ساسان: وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات.
(٥) يشير إلى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست إلا درهماً على درهم.

تفارق الرحمة قلبك، فارق المال جيبك، فطفت مع الطائفين وتسولت مع المتسولين، ثم لا تجد لك راحماً ولا معيناً. فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك، ولا تنسَ أن تردد في صباحك ومسائك، وفي مستأنف خطواتك، وفي أعقاب صلواتك، كلمة ابن الزيات «الرحمة خور في الطبيعة».

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لك فوك، ورقصت لها أشداقك، فطرت إليها، ثم وقعت على خبزها وشوائها، وفاكهتها وحلوائها؛ مثلج الصدر ثابت القدم، ساكن القلب، طيب النفس كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة، ومرارة العمر، وشبع اليوم، وجوع الأبد، وأنك إنما طعمت ما في الحبالة من الحب، تأكله اليوم ليأكلك غداً. فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه، فطار لمرآه لبك، وتمشي له قلبك في صدرك، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك، فالفقر إن منحت، والعار إن منعت وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه، فسمعت وطربت، ومن طرب شرب، ومن شرب وهب، ومن وهب جرب، ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك، واكتفائك بقرصك وزيتك، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك، حيث لا تزور ولا تزار، منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك، وأقضت مضجعك، وأقعدتك مثل روق الظبي خيفة وحذاراً؛ فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك، ويسود عيشك؛ والسلام.

كتاب يأس:

كتابي إلى سيدي ومولاي، والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها، وترن أطيارها، وتشتجر أغصانها، وتعتنق غدرانها؛ وهاجرة من اليأس تتلظى نارها، ويعتلج أوارها، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع خشية الطائر الحذر، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره، قرار الماء في نهاية منحدره، وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم، وسرور وحزن، وقبض وبسط، ومد وجزر، أذكر الله ورحمته وإحسانه، ورأفته وحنانه، فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر، وثغرها البارق، وجمالها الساطع، وبشرها الضاحك، ثم أذكر الدهر وصروفه، والعيش وحتوفه، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيها عن عثرات في الخطوات، ونكبات في الغدوات والروحيات، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف

بين النفوس وآمالها، والقلوب وأمانيها، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي، ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا، فليت الله يصنع لي فيمطر علي قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي، وأطفي بها لوعتي، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحري[1] ونحري نشوباً لا يستقي بعده عرقاً نابضاً ولا نفساً متردداً، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف، لا هو حي فيرجى، ولا ميت فيبكى.

يقولون «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل» وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء، وصاعقة العذاب، وطاغية الطوفان، والزلزال الأكبر، والموت الأحمر، والخوف من الجوع، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل، وما ليلة نابغية، صرير نجمها، حالك ظلامها، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذاراً، فوق أرض تعزف جناتها[2] وتحوم عقبانها، وتزأر سباعها، وتعوي ذئابها، وتحت سماء تتهاوى نجومها، وتتوالى رجومها، وتتراكم غيومها، بأسوأ في نفسه أثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه، تردد الغصة بين لحييه لا هي نازلة فيطعمها، ولا صاعدة فيقذفها.

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية، وقنن الجبال، أن أراها سارية في مساربها، سارحة في مسارحها، تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات، ومفاجآت المقادير، لا يعنيها الأسف على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق، قد قنعت من الماء بالكدر، ومن العيش بالجشب[3] فتساوي لديها شحمها ولحمها، وشيحها وقيصومها، وسعدها ونحسها ونعيمها وبؤسها، فما تحفل بنوازل القضاء، ولا رجوم السماء، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها؟

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي منه كمثل رجل زلت به قدمه فسقط في جوف بئر بعيد غورها، ناء مكانها، فما زال يتخبط ويضطرب، ويهب ويثب حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها. ثم تلمس أخرى غيرهما فما وجدها، حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى، فسقط، فخاف الغرق

---

(١) السحر: الرئة.
(٢) جمع: جان.
(٣) الجشب: الخشن من الطعام.

فعاد إلى نفسه، فعاد إلى سقوطه، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء.

إرم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعاً صرعه أمله؟ أو قتيلاً قتله رجاؤه؟ أو صديقاً يشكو غدر صديق كان يعدّه لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه، أو باكياً يبكي وليداً كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيه، أو ساعياً دائباً وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده، أو ساهراً متململاً لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكياً باكياً، داعياً مناجياً لا تراه إلا عين السماء، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء.

هذه حالتي، وذلك همي، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعاً، وأفارق عشيرتي وصحبتي، ويراعي ومحبرتي، علني أجد في البعد عن مثارات الأماني، ومباعث الآمال، راحة اليأس، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء.

فها أنا ذا قابع في كسر بيتي ولا مؤنس لي إلا وحشتي، ولا أنيس إلا وحدتي أتخيل البيت قبراً، والثوب كفناً، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم لأعالج نفسي على نسيان الحياة، وأمانيها الباطلة، ومطامعها الكاذبة، حتى يبلغ الكتاب أجله، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك، والسلام.



الكلمات

الجرائد:

لا أرى الصحف في مصر إلا نادياً من أندية القمار، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبين، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة «البليار» ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها في الصباح «زيد» ويخسرها في المساء «عمرو» وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعاً، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي.

عبد الحميد:

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان، ويدعو له بسلامة عرشه وطوله بقائه، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع، وصفقوا له تصفيقاً كاد يضم أضلاع المسرح بعضها إلى بعض، وحضرت ليلة أمس منظراً من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلاً ظالماً سفاحاً، ضعيف الهمة، ساقط النفس، زَمِن المروءة، جباناً مستطاراً، ورأيتهم عمدوا إلى صورته فجعلوها مواطىء أقدامهم، ومضارب سيوفهم، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم، وابتهجوا لمرآه ابتهاجاً ملأ فضاء صدورهم، فتمشى في أعصاب أدمغتهم حتى وصل إلى أعصاب أيديهم، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل.

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالماً أو عادلاً، كريماً أو لئيماً، شريفاً أو وضيعاً، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم، كتابهم وشعراؤهم، علماؤهم وجهلاؤهم، هم الناس الذين يقول فيهم القائل:

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي، ولأم المخطىء الهبل

الشهرة:

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزاناً للفضل في مصر، خصوصاً في عالم الأدب، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد إلا إذا سلم السابق من كيد العابث، وخدعة الأريب وأنى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصاباً، ويلصقها بنفسه إلصاقاً. وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه، وإمتاع وجدانه فلا يترنم بقصائده في المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الأسماء والألقاب، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره، ولا يتمم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره فترى للأول في هذا البلد الساذج دوياً كدوي الرعد، وترى الآخر مطرحاً مجفواً لا يؤبه له، والدرَّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدراً من جميع ما على وجه الأرض من الواح البلور. وإن كان ملء العيون حسناً وبهاء، ورونقاً وماء.

فكاهة:

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسي أمام المرآة وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل، فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أن الحلاق قد أصابه مس من الجنون، فارتعد بين يديه وخاف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تحمد عقباه، واعتقل لسانه فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله.

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثاً سابقاً بينه وبينهم: لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس «الزبون» هنا طوكيو، وهنا بور أرثر، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصر أوياما وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي، وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان، وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم، ثم أردف كلامه بقوله «وفي هذه البقعة

ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية» وضرب بجمع يده أم رأس الزبون فقام صارخاً يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين والروس واليابانيين، والناس أجمعين.

لا أعلم إن كان المحدّث هازلاً، أو مجداً، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل!

الأقسام:

لا أعرف فرقاً بين حنث الحانث في يمينه، وكذب الكاذب في حديثه كلاهما ضعيف المُنة، وكلاهما ساقط الهمة، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقاً، كذلك لا يستطيع الحانث أن يكون باراً. وناقض العهد أن يكون وفيًّا فخداع من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن في مواقف الأقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف، وأنه يتحرّج في الحنث، ما لا يتحرج في الكذب، فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً.

الدين:

أيها الناشىء: إن من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين، وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه، ونبذوا طاعته، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استثقالاً وتبرماً، لا تقلداً وتمذهباً، وما هم بمنكريه. فاعلم أن الله سيبتليك بهم، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه، وسيخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة، وأن تنال الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها، إلا إذا تنكرت لدينك. وتسلَّبت منه، وخفرت ذمته، فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة، واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس وإن الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء، وأنواع الآلام، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة، ولا يئل من عثرة إلا إلى عثرة، لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته. ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة:

قال لي بعض الناس: إن قوماً يغرقون في مدحك فهلا زجرتهم فقلت له: إن آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع شيئاً، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضاً فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها.

الانتقاد:

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان: أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان، أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا ينتقده، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه، أي أنه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في كتابه، وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول فهو للانتقال هناك أثراً طاهراً في الكتاب من رواجه وكساده وشهرته وخموله فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مراً فإن يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد، وهو أن الكتاب جليل القدر، سني القيمة، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم، بل رأيت من يتوسل إلى بعض الناقدين أن ينتقد مؤلفه، بل رأيت من يبلغ به الأمر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول، أولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم في نفوسنا، أما الذين يغضبهم الانتقاد ويجرح صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً.

الحزم:

إن الدرهم الذي تمنحه من لا يستحقه، قد خرج من يدك فلا سبيل بك إلى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقه، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كأساً يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفاً يسد به جوعة أولاده.

الألم:

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف أن

الإنسان غافل بطبيعته عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة هي نذر تأتيه من عالم الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة.

الغفران:

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للإنسان، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم، ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لأن الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم، فلم لا نغتفر ذنوب أولئك الذين ما أذنبوا إلا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على أثرها صرعى لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؟

الدعوى:

إن أردت أن تكون في الأمة الجاهلة كل شيء فادع لنفسك كل شيء، تنل بقولك في الزمن القصير، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل فإن الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه.

الدين والوطن:

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه، لأنه إن كان بنقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر، وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران.

الحلم:

إذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك في موقفك هذا بين اثنتين إما أن يكون الرجل صادقاً فيما يقول أو كاذباً، فإن كانت الأولى فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من أرشدك إلى عيبك، وكشف لك عن خبيئة نفسك، وإن كانت الأخرى فاربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون أن في استطاعة الأكاذيب أن تبقى زمناً طويلاً على ظهر الأرض.

الأدب:

لا تكافىء السفيه على سفهه بمثله، فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم أنك تنقمها منه، فإن كنت لا بد منتقماً فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جعلاً على أن يغضبه، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحاً محرجاً والأحنف ساكت لا يقول شيئاً حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب إلى قومه باكياً نادباً يأكل أصبعه أكلاً ويقول: والله ما سكت عني إلا لهواني عليه.

الأخلاق

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعترض الرائح، وتصد سبيل الغادي، فلا الناس بظلها يستظلون، ولا هم من شرها ناجون.

الاعتدال:

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام، وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم، وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل، واعلم أنك لا تزال كريماً حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت مسرف، وإنك لا تزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول، وأنك لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فإذا أنت شجاع، وإن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء.

البرّ:

ربما كان لك من أبويك أو من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو عصور نشأته على أن ينال حظاً من العلم والمعرفة مثل ما نلت، فإياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيهه أو السخرية به أو الإدلال بنفسك عليه فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته

عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها، وموارد الأمور ومصادرها، ما يبهر علمك الذي تعتد به، وتدل بمكانك منه عليه، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقاً بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر.

الشقاء:

السبب في شقاء الإنسان أنه دائماً يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه، فهو لا ينفك شقياً في حاضره وماضيه.



الفتاة والبيت

«الكلمة التي قرّظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت».

حضرة صديقي الكاتب الفاضل أنطون أفندي الجميل.

أهديتَ إلى كتابك: الفتاة والبيت فأهديته إلى ابنتي، لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات، وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزيته، وتقدير منزلته، فلما قرأته عادت إلي تقول إنني لم أهد إليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب.

سامحها الله، فقد كان فيما أهديت إليها كتاب «النظرات» فقد فضلته على كتاب أبيها، ولكن ما لها وللنظرات، وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة، فهي فتاة على باب المستقبل يهمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر أن تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها، لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى اليوم، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به، إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه إن قدر لها حظ المكثرين، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه، من زوجها إلى خادمتها، فتسعد بهم ويسعدون بها، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها، حتى لا يخدعها الخدم عن مالها، إن كانت ذات خدم، أو تستغني عن معونتهم، إن عجزت عن اتخاذهم، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة، في اليوم الذي تفقد فيه عائلتها ومعينها، قطرات من الرزق تقيم بها أَوَدَها، وتصون بها ماء وجهها؟

وكتابك ـ يا سيدي ـ هو الجواب عن جميع ما تطلبه، وتسائل نفسها عنه،

فلا غرو أن أعجبها وأطربها، ولا عجب إن فضلته على كل كتاب حتى كتاب أبيها.

أشكر لك، يا أنطون، تلك اليد البيضاء التي أسديتها إلي وإلى أمتك، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم، وأن يأخذوهن بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها، فما أحرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب «الفتاة والبيت».

البعث

«هي قصة خيالية، الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية».

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلة لهمّ نزل بي، والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً، فلما تقضي الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه، فقلت من الطارق؟ قال: غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء واعوزه المأوى يطلب كريماً يعتمد عليه، ومضجعاً يأوي إليه، وقد أعد لمن يسدي إليه تلك النعمة، ذخيرة صالحة من شكر لا يبلي ودعاء لا يخيب، فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيى على جهد المتكلفين، وتزويق المزورين[1]، وقلت في نفسي: ما لهذا الرجل بد من شأن وفتحت الباب فإذا شيخ كنتي[2] من حملة أعباء الدهر، قصير القامة، ناحل الجسم، زري الهيئة، قد نيف على الثمانين من عمره، فخيل إليّ أن ظهره المحدودب قوس، وإن عصاه التي يعتمد عليها وترٌ قد شدّ إلى تلك القوس، وأنه قد أعدّ من هذه

(١) زور الشيء: حسنه وقومه.

(٢) الرجل الكنتي الكبير العمر، نسبة إلى قوله: كنت في شبابي كيت كيت.

وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون[١] فلما شعر بمكاني رفع رأسه إلي ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي وأحاطت بما بين قمة رأسي واخمص قدمي فرأيت وجهاً أسمر اللون قد انتثرت في أكنافه حفائر الجدَرى[٢] وأسارير تنطوي تارة على عبر القرون، وحوادث الدهور، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى، ولحية بيضاء إلا أنها شعثاء، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالاً وإعظاماً، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها، واحسب أن لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها[٣] فمشيت إليه مشية الهائب الوجل وقلت: على الرحب والسعة يا سيدي، لقد حللت بمنزل أنت صاحبه وولي الأمر فيه «ثم قدمت إليه يدي فمشى معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة:

ما أوسع الموت يستريح به الجسم المعنى ويخفت اللجب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف فأعاد النظر إليّ وقال: اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسي، فتركته وذهبت إلى غرفة منامي وقد أخذ منظر الرجل مكاناً من قلبي وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي فلم أزل أقلب النظر في حالة وأذهب المذاهب في استبطان سره حتى أخذ عيني نوم ثقيل لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل.

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه فهبطت إليه في خلوته أهيب ما أكون له فرأيته جالساً إلى قبلته يقلب وجهه في السماء، ويكرر هذا الدعاء:

---

(١) وصف أبو العلاء نفسه في شيخوخته في إحدى رسائله بقوله «وإني لأعجز إذا اضطجعت عن القعود فربما استعنت بإنسان فإذا هم بإعانتي وبسط يديه لنهضتي ضربت عظامي لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن» وقوله في لزومياته:

يا نفس جسمك سربال له خطر ... وما يبدل في حال بسربال

قد أخلقته الليالي فاتركيه لقى ... فما يزيدك لبس المخلك البالي

(٢) اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت ببصره وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك.

(٣) نسبتها: أي ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور.

اللهم لا راد لقضائك، ولا سخط على بلائك، أمرت فأطعنا وابتليت فرضينا، فأمطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك، فلا عون إلا بك، ولا ملجأ إلا إليك، إنك أرحم الراحمين، وأعدل الحاكمين[١].

ثم أطرق بعد ذلك إطراقاً طويلاً خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد وأن الذي أراه بين يدي جسد هامد قد أسرى بروحه إلى الملأ الأعلى فجعلت أختلس الخطأ إليه حتى صاقبته، فرفع رأسه إلي ذاهلاً، وقال: أنت هنا؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة نحن من تاريخ الهجرة؟ فعجبت لسؤاله وقلت: في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلثمائة والألف، قال: ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه؟ قلت: القاهرة المعزية: قال: أفي هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت؛ لم أفهم ما تريد يا سيدي، قال: لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث أن يراني حتى يرعد مني فرقاً فيوصد بابه في وجهي أو ضنيناً يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني، أو أعجمياً لا يفهم ما أقول، ولا أفهم ما يقول: قلت: ما في هذه الحالة أعجمي، قال: إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه وإن شئت أعدته عليك كما سمعته، ثم أخذ يسرد علي الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه إلي سرداً متواصلاً كما تسرد الببغاء كلماتها، فقلت: إنك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري، فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه[٢] فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه[٣] ورأرأ بمقلتيه[٤] وزحف إلي حتى اصطكت

---

(١) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه:

كم بودرت غادة كعوب ... وعمرت أمها العجوز
يجوز أن تبطىء المنايا ... والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى ﴿**إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**﴾ الآية ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الأرض وهو يقول: سبحان من هذا كلامه. قال: فعلمت صحة دينه ويقينه.

(٢) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمناً طويلاً حتى يلقيه كما سمعه.

(٣) انكفأ لونه: تغير.

(٤) رأرأ بمقلتيه: حركهما وأدارهما.

ركبتانا، فعجبت لأمره وما رأيت من استحالة حاله. ثم قال لي: من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه، قلت: رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به؟ قلت: إن الناس في أمره مختلفون، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له، قال: ومن أيهم أنت؟ قلت: ممن يتشيع له، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه، قال: أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه؟ قلت: ما أعدل بهذه الأمنية غيرها، قال: قد بلغك الله طلبتك، قلت لم أفهم يا سيدي شيئاً مما تقول، قال: أكاتم أنت على سرّي قلت: نعم، قال: أتقسم؟ قلت: إن للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهماً نفسي لأقسمت، قال: الآن عرفتك، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أسقط في يدي وعلمت أني قد هلكت، وكان أول ما كان مني أن ألتفت ناحية لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لي من هذا الجنون عارض سوء، وكأنه ألمّ بما في نفسي فقال: لا ألومك على ما ظننت فقد قدرت قبل أن ألقي إليك كلمتي هذه أنها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله؟ قلت: نعم، قال: وتؤمن بالبعث، قلت: نعم، قال: وما يريبك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته؟ قلت: ذلك يوم يبعثون، قال: هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه **﴿فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾** وبعد فوالله يابني ما كفرت منذ آمنت، ولا كذبت منذ عرفت أن الصدق منجاة من النار، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعدما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتك فقد أسلفت إلي من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبة أتنفق بها عليك، أو أزدلف بها إليك، وإني قاص عليك قصتي فاصغ لها ولك بعد ذلك حكمك، فسرى عني قليلاً ما كان ألم بنفسي من القلق فأقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول:

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي، فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللمحة وكل ما وجدته حاضراً بين يدي في صحائفي، فكادت حسناتي تكافىء في الميزان سيئاتي ولولا تلك الكلمات التي كنت أرددها في حياتي الأولى في

تزهيد الناس في النسل والزواج[1] فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان لا بد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعاً بها لا أريد القضاء ولكن أريد اللطف فيه، فتعلق محمدﷺ بقوائم العرش الإلهي وقال:

اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهاً لها متبرماً بها

---

(١) لأبي العلاء أقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهيد في النسل جاء بها على صور مختلفة تارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله:

قدم الفتى ومضي بغير تئية ... كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل ... لو عاش كابد شدة في دهره

وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله:

وإذا أردتم للبنين كرامة ... فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله:

تواصل حبل النسل ما بين آدم ... وبيني ولم يوصل بلامي ياء
تشاءب عمرو إذ تثاءب خالد ... بعدوى فما أعدتني الثوباء

وقوله:

بنت عن الدنيا ولا بنت لي ... فيها ولا عرس ولا أخت

وقوله:

لقد صرت في الدنيا غبيناً مرزءاً ... فأعفيت نسلي من أذاة ومن غبن
فإن تحكمي بالجور في وفي أبي ... فلن تحكميه في بناتي وفي ابني

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولد جناية منه عليه كقوله:

ليذمم والداً ولد ويعتب ... عليه فبئس عمري ما سعى له

وقوله:

هذا جناه أبي عليّ ... وما جنيت على أحد

وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ما كان يتصوره من أن الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الإنساني ولا خلاص له منه إلا من طريق العدم المحض، وإن إسناده الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الإمعان في تصوير هذا الشقاء وتبين ضرورة اتصاله بالإنسان وأنه لو لم يولد لما كان شقياً، وقد أوضح غرضه هذا توضيحاً بيناً في قوله:

ألا تفكرت قبل النسل في زمن ... به حللت فتدري أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعاً ... وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت ... به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية ... عند النذور لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله ... إلى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له ... بقراط ما كان من موت يوقيه

متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فراراً من أهلها يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل فأسألك بقلمك النوراني الذي تمحو به في لوحة ما تشاء وتثبت، أن تقي جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب النار[1] وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه، وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخر ما لقي فيها أولاً، إنك بعبادك لطيف خبير.

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضي فيها من الأيام بعدما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى أني كنت في العهد الأول أحمده على العمى كما يحمده غيري على البصر، فرد إليّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه.

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام التي سأقضيها في داركم هذه، فاكتم على أمري حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك وعلمت أن الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى.

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً وعلمت أني أحرزت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي إلا خوف انقضائه.

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غداً.

---

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقده جميع الموحدين أن ما لقيه في هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وأنعمها مدخر له أجره في دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله:

أأخشى عذاب الله والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله:

أأصبح في الدنيا كما هو عالم ... وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات ربلات[1] كنت أعددتهم للضيفان من قبل فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرة وإلي أخرى ثم قال: ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إلي؟ قلت: إنهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهم والحدب بهن، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن[2] واستدرن للذبح، وقد كنت أبقي عليهن كلما طرقني طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صدرها حزناً على أترابها الصغيرات، أما اليوم فلم أر من ذلك بدأ فذبحتهن إكراماً لك، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائها.

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهينم[3] فيه بهذه الكلمات.

وارحمتاه، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه، ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق، وأخرس لا يبين[4] وبما كان زقاء الديك، وقوقأة الدجاجة، وصرصرة البازي، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور، وثغاء الشاة، ومواء الهرة، وخوار الثور، وحنين النيب[5] بكاء بغير دموع، وشكوى بغير لسان، وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخور عيوناً.

ثم رفع إلي وقال: أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عندما أردت ذبحهن قلت: لا يا مولاي ومتى قلن للناس شيئاً فيقلن لي؟ فنظر إلي نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال: أما لو أن الله منح ذابح

---

(١) الربل الكثير اللحم.

(٢) اكتنز اللحم: اجتمع وصلب.

(٣) الهينمة: الصوت الخفي.

(٤) من كلام أبي العلاء في إحساس الحيوان بالألم قوله في إحدى رسائله «وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم» وقوله«ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم لا يتوصل إليها إلا بإيلام حيوان يفر منه في كل أوان».

(٥) النيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنة.

الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له: مهلاً رويداً أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمدد يدك إلي فلا شأن لك معي ولا ترة[1] لك عندي.

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد أن أموت ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي أفراخاً صغاراً هن إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي، وليس من الرأي أن أُكل أمرهن إليك من بعدي لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك.

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة فلا تملك أن تسلبني إياها.

كل ما تستطيع أن تمن به على أنك تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلا فتات مائدتك ولا تسقيني إلا غسالة يديك، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحساناً إلي بل لتهيىء لنفسك ما يسد شهوتك ويطفىء لوعتها وهل تعلم أنك أنت الذي سجنتني في أقفاصك، وحلت بيني وبين رزق الله أطعمة أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب؟!

أمن أجل الخشارة[2] القذرة والجريمة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي أفراخي ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض[3] وهوامها ورسل الفجر المنير إليك.

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن، فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفري الأوداج بمداك، لا بل إن جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت على ذلك من القادرين[4].

---

(١) الترة: الثأر.

(٢) الخشارة: فضالة المائدة.

(٣) المراد بنات الأرض: الحشرات التي تخرج من بطنها.

(٤) فضل أبو العلاء الحيوان على الإنسان في كثير من كلامه كقوله:

سببت بالكلب فأنكرته ... والكلب خير منك إذ ينبح

وقوله:

أقل منهم شراً ومرزية ... ما ركبوا في السرى وما ذبحوا

وقوله:

خير من الظالم الجبار شيمته ... ظلم وحيف ظليم يرتعى الذبحا

استضعفتني فبرزت إلي فهلا برزت لشبل الأسد، أو ديسم الدب، أو فرعل الضب، أو حرش الحية، أو هيثم النسر، أو ناهض العقاب[1]؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزاً، وما أظلمك قادراً، وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك!

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذناً كالآذان وبصيرة كالبصائر، ولكن الناس لا يعلمون.

هيه يا صاحب الدجاجات! حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها، وقثائها، وفومها، وعدسها، وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي، وأنت تعلم أنني رجل سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيفاً وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعاماً والبلس حلوى[2] لأني كنت أعلم أن طعامي الذي لا يلاءمني غيره ولا يشبعني سواه، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة، والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود المزأبرة[3] والأعضاء المتوثبة، والهامات الضخمة، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترونها إلى طباعهم اجترارًا لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف[4] والتقديد والشيء والقلي، ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والأقزاح[5] مزجاً يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات، حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم، كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له.

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون على رأيي في ترك ذلك الطعام ويمعنون في مسألتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه ويلحون في ذلك

---

(١) هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان.

(٢) البلسن: العدس. والبلس: التين، ومن كلام أبي العلاء:

يقنعني بلسن يمارس لي ... فإن أتتني حلاوة فبلس

(٣) الثوب المزأبر: الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه.

(٤) الصف: تشريح اللحم عراضاً.

(٥) التوابل وما يليها: ما يطيب المطبوخ من الأشياء اليابسة.

إلحاحاً شديداً حتى ظننت أنهم قاتلي من دونه[١] كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم[٢] أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآناً ألا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً إلا إذا قدموا عليه ببطون بجر[٣] مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً، كما ترك النبيﷺ صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة[٤].

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرماً بها أو تمرداً عليها، ولكنني كنت امرءاً جزوعاً يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه، وكنت فقيراً لا أملك في كل عام من الرزق إلا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين[٥] وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية

---

(١) كتب ابن أبي عمران إلى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتاً مؤلماً، ويعرض عليه أن يحمل بعض الأمراء على أن يرسل إليه ما يكفيه مؤونة ذلك إحراجاً له وإعناتاً، وأبو العلاء يومئذ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل «ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فإنما يصلي قاعداً والله المستعان».

(٢) القرم والجعم: شهوة اللحم.

(٣) بجر، جمع أبجر: وهو الممتلىء.

(٤) من كلام أبي العلاء في الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها:

يعيب أناس أن قوماً تجردوا ... لحمامهم نصب العيون الشوازر
لقد سعدوا إن كان لم يحز عندهم ... من الوزر إلا تركهم للمآزر

(٥) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله «ومما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب، بقي ما لا يعجب، فانتصرت على فول وبلسن، وبعض ما لا يعذب في الأحسن» ومن كلامه الدال على أنه كان فقيراً معوزاً قوله:

والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين، وقد علم الله من شأني أنني رجل لو علمت أني إن أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء علي ذهباً، واستحالت الحصباء تحت قدمي دراً ما فعلت ضناً بنفسي على هذا الموقف المستوبل وإيثاراً للرضا بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده[1].

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل.

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات، وانتهاك الحرمات، فقد كان النبيﷺ يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله لم يمتلىء قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت

واتهامي بالمال أوجب أن يطـ ـلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل

(١) كان أبو العلاء غاية في قناعته وأنفة نفسه وقد ظهر ذلك في حال معيشته واعتقاله بيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الأمراء فيه وإلحاح الكبراء عليه في البروز إليهم والسكون معهم فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله:

الحمد لله قد أصبحت في دعة أرضى القليل ولا أهتم بالقوت

وقوله:

من مذهبي أن لا أشد بفضة قدحي ولا أصغى لشرب معوج
لكن أقضي مدتي بتقنع يغني وأخرج بالقليل الأروج
هذا ولست أود أني قائم بالملك في ثوبي أغر متوج

ولما اضطر أن يخرج إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر العرة ليطلب منه إطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم، ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعاً ظهر في قوله:

تغيبت في منزلي برهة ستير العيون فقيد لحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفا ق فكم نفقت محنة ما كسد

من الدنيا بقدر ما يقويك، فيقول: يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، وكان يقول: شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة[1] وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة[2] إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم يأكله قائلاً: كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوذاب[3] والكباب ولا بالخل والزيت.

فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله أو محرماً ما حلل الله؟ لا، فما كل من أبغض حلالاً حرمه، ولا كل من أحب حراماً حلله، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال: لو قطعت إرباً إرباً ما حرمته ولو قطعت إرباً ما شربته وعلم النبيﷺ بحل الطلاق ثم قال: أبغض الحلال إلى الله الطلاق، بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها، والنفوس لا تنفر إلا مما حل لها ولا تشتهي إلا ما حرم عليها.

فويل لي من هؤلاء الناس، شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[4].

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثه يبين، فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام، فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فأردت أن أرفه عليه ما ألم به من الهم فقلت له: يا مولاي إن للحيوان اليوم شأناً غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين يأخذون أنفسهم

(١) مخ الحنطة: خالصها.

(٢) الدرة: السوط يضرب به، كان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة تكاد لا تفارق يده.

(٣) الجوذاب: طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم.

(٤) من كلام أبي العلاء في عدم رضاء الناس عنه حتى في زهده عما في أيديهم:

حوربت في كل مطلوب هممت به ... حتى زهدت فما خليت والزهدا

بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل أو يسوطها سوطاً عنيفاً[1] رفعوا إلى الحاكم أمره، أو رأوا حيواناً هزيلاً أو مهيضا[2] حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه أن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً وإلا قتلوه رحمة به وإشفاقاً عليه.

قال: لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال، وها نحن نرى في كل يوم مريضاً يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله، وصحيحاً يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر إليه[3].

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا مرائين مصانعين، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرعاً إلى البدرة حراماً.

يا بني آدم، دعوا النوق إلى مراحها، والشاء في دروبها، والوحش في كناسه، والضب في جحره، والذئب في وجاره، والقطا في أفاحيصه، ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها، ولا الحمام عن محاضنها، ولا اليعاسيب عن خلاياها، ولا الأسماك عن مسارحها[4]، وجنبوها فخاخكم وشباككم، وقتركم وزباكم[5]، ومداكم وشفاركم، فإن لها نفوساً كنفوسكم، ووجداناً كوجدانكم، ورجاء في الحياة كرجائكم، واعلموا أن الله تعالى ما أغوى بعضكم بعض، ولا سلط قويكم على ضعيفكم، ولا أجرى هذه الينابع من الدماء بين أحياءكم إلا بعد

---

(١) ساط دابته ـ سوطاً: أي ضربها بالسوط.

(٢) المهيض: الكسير.

(٣) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن إدراك الغيب:

وجدت الغيب تجهله البرايا ... فما شق هديت وما سطيح

(٤) هذه فروق أماكن تلك الحيوانات.

(٥) القتر: جمع قترة بضم القاف، وهو الناموس الذي يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد. والزبى: جمع زبية بضم الزاي وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الأسد.

أن ضريتم[١] بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها، وقطعتم إلى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر[٢]، فارحموها ترحموا أنفسكم، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم، إنكم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون[٣].

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه، فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت[٤] في عينيه، فانسللت من بين يديه، وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً.

---

(١) ضري الوحش باللحم اعتاده وألفه.

(٢) الغلاصم: جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق، والأباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن إيذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب:

لقد ساءني مغد الفقير بجهله ... على العير ضربا ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق فإن ونى ... أحال على ذي فترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله:

لك النصح مني لا أعاديك خاتلاً ... بمر ولكني أغاديك مكرما
إذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري ... أخا الإنس أياما وإن كان محرما
يصوغ لك الغادي قلادة هالك ... من الدم تخبي وجدك المتضرما

وقوله في النهي عن صيد الوحش:

لا تطرد الوحش فما يلبث ... المطرود في الدنيا ولا الطارد

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة:

روح ذبيحك لا تعجله ميتته ... فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقوله في الاعتراض على صيد الأسماك:

جاروا على حيوان البرثم غدوا ... على البحار فقالوا الصيد ما فيها
لم يقنع الحي منها ما تقنصه ... حتى أجاز أناس أكل طافيها

وقوله يبكي على الطائر المقتول:

وأبك على طائر رماه فتى ... لاه فأوهى بفهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت ... فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً ... فقص عقد الشروق أو هتفا
كأنه في الحياة ما فرع الغصـ ... ـن فغنى عليه أو هتفا

(٤) يقال رنق النوم في عينيه إذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أي تحليقه ورفرفته بجناحيه.

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها، وتوسد أعشابها وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ويبسم للعصافير تنتقل بين أنجمها[١] وأشجارها ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أُخرى حتى وصلنا إلى واد أفيح يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار ويتراءى في ألوان من النبات، مشتبهات وغير مشتبهات، من هائج وعميم، وبارض وجميم[٢]، وكروم وأعناب، وسنابل وأعشاب وتفيض أرجاؤها بالجداول والغدران، والقني والخلجان، مطردات ومنعطفات، ومجتمعات ومفترقات، يفضي أولاها إلى أخراها، ويتصل أقصاها بأدناها، ويعطف كبيرها على صغيرها، وقويها على ضعيفها؛ فكأنها صلال رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته، ومصاعده ومنحدراته، فهي تنقبض وتنبسط وتنساب وتتمعج[٣] وتقبل وتدبر، وتقوم وتقعد، وتتوائب وتتراجع وتتواصل ثم تتقاطع؛ وكأن حفيف أوراقه، وخرير مائه، وتغريد أطياره، وضجيج نواعيره، وعجيج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل إليه أنه هابط من أبواب السماء أو أن سكان الألمب[٤] فوق عروشهم يغنون، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون.

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول:

---

(١) الأنجم: جمع نجم بفتح النون، وهو ما نجم من النبات على غير ساق.

(٢) الهائج من النبات الذي اصفر ويبس والعميم منه ما عم الأرض والبارض أول ما يبدو من النبات فإذا تحرك قليلاً فهو الجميم.

(٣) تمعجت الحية: تلوت في سيرها وتثنت.

(٤) الألمب: خرافات اليونان، مجمع آلهتهم ويقولون إن لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون.

للمليك المذكرات عبيد	وكذاك المؤنثات إماء
فالهلال المنيف والبدر والفر	قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثـ	ـرة والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا	بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إلي وقال: كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ، والمؤرخون يصانعون ويداهنون، أو من أفواه الفقهاء، والفقهاء تجار يرتزقون، لا هداة يرشدون، أو من خطرات عقولهم، وقد أفسدها، عليهم القائلون والكاتبون[1] والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق إليها، قلت وأين نجدها، قال في هذه الأودية الفيحاء، تحت تلك القبة الزرقاء، بين الظل والماء.

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة، فإذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث أن تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الأرض خيراً بجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء والأسماك السابحة في الماء، والأجواء المملوءة بالهواء والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، فيمتلىء قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبث به المناظرات، ولا تشوه جماله

---

(١) كثيراً ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التي يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلباً للربح منهم كقوله:

ويقال للكرام قولاً وما في العـ	ـصر إلا الشخوص والأسماء
وأحاديث حبرتها غواة	وافترتها للمكسب القدماء
غلب المين منذ كان على الخلق	وماتت بغيظها الحكماء

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين في التاريخ القديم:

وادعوا للمعمرين أموراً	لست أدري ما هن والمشهور
أتراهم فيما تفضي من الأيام	عدوا سنيهم بالشهور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون أن أول من شاب من الرجال هو سيدنا إبراهيم ﷺ:

ما أقبح المين قلتم لم يشب أحد	حتى أتى الشيب إبراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة	أن المشيب قد يماحل في اللحم

وقوله:

لعمري لقد فضح الأولين	ما كتبوا وما سطروا

المجادلات، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر، ولا فقيه يلقنه الجدل، فلا دليل على الله غيره، ولا هادي إليه سواه[١].

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب، والعشب يأكل التراب، والتراب يأكل السائمة، فيستحيل الجماد نباتاً، والنبات حيواناً، والحيوان جماداً. فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتشكل جواهرها، ويعلم أن هذا الإنسان الفاخر بنفسه، والمدل بعظمته واقتداره، وربما كان بالأمس صفيحة[٢] ملقاة على جانب قبر، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة[٣] نعل[٤].

---

(١) كان أبو العلاء من أشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده أنها تورث الأحقاد والأضغان فضلاً عما تلقيه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء وكان يكره من المتناظرين أن المنافسة وحب الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهات كما يظهر ذلك من مثل قوله:

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بأن زخرفه ... يوهي العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون في شأم وفي يمن ... يستنبطون قياساً ما له أمد
فذرهم ودنياهم فقد شغلوا ... بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله:

ملل غدت فرقاً وكل شريعة ... تهدى لمضمر غيرها أكفارها

وقوله:

علم الفتى النظار أن بصائراً ... عميت فكم يخفي اليقين وكم يعم
لو قال سيد غضاً بعثت بملة ... من عند ربي قال بعضهمو نعم

وقوله:

هذا الفتى أوقح من صخرة ... يبهت من ناظره حيث كان
ويدعى الإخلاص في دينه ... وهو عن الإلحاد في القول كان
يزعم أن العشر ما نصفه ... خمس وأن الجسم لا في مكان

(٢) الصفيحة: الحجر العريض.

(٣) الذؤابة من النعل ما أصاب الأرض من المرسل منها على القدم.

(٤) يردد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيراً في كلامه فمن ذلك قوله:

مضى الأنام فلولا علم حالهم ... لقلت قول زهيراية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا ... منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

وقوله:

وما يدريك والإنسان غمر ... وقد يدري خليلك وهو دار
لعل مقاصل البناء تضحى ... طلاء للسقيفة والجدار

وقوله:

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون، ولا اقتتلوا إلا أنهم ملحدون.

هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها، مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تطير إليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألم به من تلك الأدران والأوحال، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه ويزوى ما بين حاجبيه ويربد شيئاً فشيئاً، حتى يسود غضباً على هذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور، ولا يزال ماداً يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداوله بينه وبين النهار، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام، ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار، التي تتطاير يمنة ويسرة وصعوداً وهبوطاً فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه.

هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين، ولا خداع الخادعين، ولا يصد سمعه قرع النواقيس، ولا صياح المؤذنين.

فقلت حسبك يا مولاي، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلاً أحسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا إليه علّه ييسر لنا ظلة نفيء إليها ورجعة باردة نفثأ بها هذه الصارة[1]، فمشينا إليه حتى بلغناه فرأيناه

فلا يمس فخاراً من الفخر عائد | إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة | فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض وما درى | فواهاً له بعد البلى يتغرب

وقوله في داليته المعروفة:

رب لحد صار لحداً مراراً | ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين | في طويل الأزمان والآباد

(١) يقال فثأ القدر إذا سكن غليانها، الصارة: العطش.

مكباً على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبرَ صدره[١]، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً، حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم، فحييناه بتحية حيانا بأحسن منها، وأفضينا إليه بطلبتنا، فأشار بيده إلى كوخه، وكان منه على بعد كثب، فإذا عريش من عيدان القصب مسجج[٢]، قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الأشجار، واعتمد على أسيطينة[٣] من اللبن الأسود، وامتدت أمامه صفة مستطيلة، واستدار به نؤى يمنع عنه مسيل الماء؛ فدخلناه فلم نر فيه إلا رثة[٤] من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق الخبز اليبيس، وخلقان من القمص والأبراد، وقدر وأثفية، وجرة مملوءة ماء، وحشية[٥] مفككة تضطرب في جوفها حشوة من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل، فشربنا حتى ارتوينا، وأخذنا من تلك الحشية مضجعاً، وما زلنا على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل[٦] في مشيته، ويحمل فأسه على عاتقه، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة، فجلس وجلس ولداه بين يديه، وأنشأ يلقي إلينا معاذيره، ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب، فعذرناه. ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي ـ وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان ـ:

الشيخ ـ من يملك هذه الأرض؟

الفلاح ـ هي لسيدي ومولاي ـ أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته ـ صاحب هذا القصر الذي تراه ـ وأشار إلى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء رفرفة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء ـ.

الشيخ ـ أراك تدعو له، وتتمنى له الخير والسعادة، فلعلك سعيد بجواره، مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه.

---

(١) شرست اليد إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق. وشثنت القدم إذا خشنت وغلظت، وزأبر الثوب إذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه.

(٢) يقال سجج الحائط إذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين.

(٣) أسيطينة: تصغير أسطوانة.

(٤) رثة المتاع بكسر الراء: ساقطة.

(٥) الحشية: الفراش المحشو.

(٦) قزل ـ به قزل: وهو أقبح العرج.

الفلاح - حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين، ممتطياً فرسه الدهماء، في ركب من أصحابه وحاشيته، ماراً بهذه الإجمالات الملتفة، يتنزه ويتروح، ويطارد الثعالب والذئاب، مطاردة الشجاع المستقتل، ثم يعود إلى قصره مسروراً مغتبطاً بمصبحه وممساه.

الشيخ - إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته.

الفلاح - وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها، نعمة أجل قدراً وأسنى قيمة من أن أكون عبداً مملوكاً لسيد كهذا السيد، رفيع الجاه، جليل القدر، واسع النعمة، تطأطىء بين يديه رؤوس العظماء، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء؟

الشيخ - أيها الرجل: ما عن هذا أسألك، إنما أسألك هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر بابك أو يخلو بك أحياناً ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك؟

الفلاح - الحق أقول يا سيدي إني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر، أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتهذيب، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمري ونهيي وزجري وتأديبي، وقد أعد لي - حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته - عصياً غلاظاً يتعهدني بها من حين إلى حين لكما نسيت أمراً من أوامره أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كله لأني أعلم أني منه على ذكر[1] وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه.

الشيخ - وأين أم هذين الولدين؟

الفلاح - ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها، فقد كنا يوماً نمتح[2] على حافة بئر فزلقت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسفت على إن لم أكن قد

---

(١) الذكر: التذكر.

(٢) متح الماء متحاً: نزعه.

لحقت بها فأكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليترحم علي كما ترحم عليها ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها.

الشيخ ـ ربما كنت قانعاً من إحسان سيدك إليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها؟

الفلاح ـ لا والله يا سيدي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيزبر، أو حفنة تمر، إلا أن تسقط بين يدي تمرة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بيني وبين ولدي أو أحتطب من أطراف الوادي بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه.

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه فأشرت إليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل، وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة، قال: ما نغص علي يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر سنه وسقوط همته وذلة جانبه. وما أحسب إلا أن الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها ووجدانها فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده[1] فهو لا يفرح إلا لفرحه ولا يغتبط إلا باغتباطه، ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه وتعبده له، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين.

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات:

يحسن مرأى لبني آدم ... وكلهم في الذوق لا يعذب

أفضل من أفضلهم صخرة ... لا تظلم الناس ولا تكذب

---

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً إلا بالفضائل النفسية، وقد ردد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله:

أسر إن كنت محموداً على خلق ... ولا أسر بأني الملك محمود

وقوله:

وإقصائي عن الرؤساء كوني ... وكونهم لخالقنا عبيداً

وقوله:

وإن أفضل من تعظيمهم رجلاً ... صفرا من الحكم التعظيم للحجر

الأربعون[1]

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عبرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هوياً.

سلام عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميداناً فسيحاً للأمال والأحلام وكنا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل نعتقد أن في العالم هموماً وآلاماً، وكان كل شيء في نظرنا جميلاً حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوباً قشيباً من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح فتنة الأنظار، وشرك الألباب!

وكان يخيل إلينا أن هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطرداً مندفعاً لا يعترضه معترض، ولا يلوى به عن طريقه لا وإلى ما لا نهاية لاطراده وتدفعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم، أن يكون لنا مأربان من مآرب الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب، ونبيت دون البعيد.

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيب أو طلعة رقيب أو أرق ليلة أو ضجر ساعة، أو نظرة شزر يلقيها بغيض، أو نفثة شر يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلم أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقذار والأكدار بين يده وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص.

---

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجلة رحمه الله وبرد ثراه.

سلام عليك أيها الشباب الذاهب، سلام على دوحتك الفينانة الغناء، التي كنا نمرح في ظلالها، مرح الظباء العفر في رملتها الوعثاء ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مغدى ومراح لنا، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شئنا.

أبكيك يا عهد الشباب، لا لأنني تمتعت فيك براح أو غزَل، و لأني ركبت مطيتك إلى لهو أو لعب، ولا لأني ذقتُ فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى.

أبكيك لأني كنت أرى في سمائك نجم الأمل لامعاً متلألئاً يؤنسني منظره ويطربني لألاؤه وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب فلما ذهبت ذهب بذهابك فأصبح منظر تلك السماء منظر فلاة موحشة مظلمة لا يضيئها كوكب، ولا يلمع فيها شعاع.

أجل، لم أتمتع فيك بمتعة من المتع، ولا بلذة من الملاذ، ولا نلتُ في عهدك مأرباً من مآرب المجد أو الجاه، ولكني كنت أؤمل وأرجو. وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم.

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل شيء ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعدَّ عدّتي لتلك الساعة الرهيبة التي انحدر فيها إلى قبري.

مضى عهد الشباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة طبيب العيون، وطبيب المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلاً، وباعي ذراعاً، ونعى الناعون إلى كثيراً من أصحابي وأترابي أي أنهم نعوا إلى نفسي ورأيت أصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم واغبرارَ وجوههم، واحمرار خدودهم، وابيضاض شعورهم، فعلمت أنني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء، وحسن الختام، أي أن قوتي في هبوط، ونشاطي في اضمحلال وسلامتي في خطر وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها، ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح والسرور فخيل إلي أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وانتقلت من النظر

في شأن نفسي، وشأن مستقبلي إلى النظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم، لأن مستقبلي أصبح ماضياً، وغداً أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد، وسمعت كلمة «الجدّ» يهتف بها أحفادي الصغار، فلم أنكرها ولم أبتئس كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقاءً على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون لي إنك موشك أن ترحل فأعد لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها، فأصبحت سمحاً كريماً، عفواً غفوراً، لا أبغض أحداً، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنباً بعقوبة، ولا إساءة بمثلها، كأنني أقول في نفسي: ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكاً، إن لم يكن اليوم فغداً، وأخذت أتحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأن الأول أجمل من الثاني بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة، وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء فبكيتها ورثيتها ولم تنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشرفاً، لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة، وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة، فكنت، أجد في نفسي غبطة عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذي يزن، أو حروب عنترة، أو وقائع أبي زيد أو أساطير الجن والشياطين، وحين آوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بديعة يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه، وحين اختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم فأشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء، والآن وقد حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل وأن الرؤى والأحلام هوس وجنون، وأن الأولياء والصالحين أحياء كانوا أو أمواتاً في شاغل بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً؟ أي أنني شقيت حين علمت، وكنت سعيداً قبل أن أعلم، وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتاً جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الآمنين في مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبنى لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الأموات، وكنت أدهش لبلاغة البليغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر وقدرة الكاتب الصائغ ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل

ما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أعجب من شيء لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها.

ما أنا بآسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حي، ولكني أرى أمامي عالماً، مجهولاً لا أعلم ما يكون حظي منه وأترك ورائي أطفالاً صغاراً لا أعلم كيف يعيشون من بعدي ولولا ما أمامي ومن ورائي ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت علي؟!

لكن ما أراده الله، أما ما أمامي فالله يعلم أني ما ألممت في حياتي بمعصية إلا وترددت فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يوماً من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه، ولا لعظمة غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه بعد ذلك، وأما من ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه.

وداعاً يا عهد الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء، وانقضى كل شيء!

أيا عهد الشباب وكنت تندى ... على أفياء سرحتك السلام

تم الجزء الثالث من النظرات.

فهرست